(١)

مهمة غير عادية

مهمة غير عادية

كان الوقت صباحا ، وقت توجه الناس الى أعمالهم ، وبالنسبة له كان هو الآخر متوجها لعمله .

لم يكن (فيما يشعر هذا الصباح) متوجها لعمل روتينى .

كان يدرك على نحو ما انه فى طريقه لمهمة ذات طابع خاص ، مهمة غير عادية تحتاج الى حشد الطاقة والاهتمام ، تحتاج الى أن يكون معدا بكل ما قد يضايقه نقصانه .. تنبه الى أنه نسى سجائره ، عرج الى أقرب محل للبيع ، ألفى البائع منهمكا فى عد نقوده ، ربما لحصر ما لديه من الفكة ، أعطاه قطعة من النقود وهو يقول : أريد علبة سجائر « كنت » .

تفحص البائع قطعة النقود دون أن ينظر اليه ، ثم طالعه بوجه غاضب كالح ورمى بقطعة النقود الى رصيف الشارع وعاد لعد نقوده .

للحظة تحير فيما ينبغي أن يفعل : أيتشاجر مع البائع لقلة ذوقه ؟ أم يسأله لم فعل ما فعل ؟ أم ينقذ نقوده من الضياع ويمضى فى طريقه متجنبا الدخول فى مهاترة مع البائع النكد ؟

وحسم تردده شعوره بأن وراءه مهمة ذات طابع غير عادى ، فالتقط قطعة نقوده من على الرصيف واستمر فى طريقه • ! عاد يتأمل قطعة نقوده ، قد تكون زائفة ، خدعه بها أحدهم ، تأكد له انها قطعة نقود عادية ، لا شىء فيها يثير الغرابة ، داخله شعور خفى بالتشاؤم ، أن يبدأ صباحه بمثل هذا الوجه النكد ، أراد أن يضع حدا لتشاؤمه بتجربة شراء جديدة لسجائره من محل آخر بقطعة النقود نفسها •

كان البائع هذه المرة منهمكا فى البيع لبعض زبائنه فأخذ منه قطعة النقود وألقى بها فى درجه وأعطاه علبة السجائر ، استرد بعض هدوئه وطمأنينته هذه المرة ، ولكن ليس الى حد كبير ، فالبائع الثانى لم يتفحص قطعة النقود ، وربما لو فعل ؟ ••

يبدو أن المهمة غير العادية التى يتوجه اليها هذا الصباح هى التى تشد أعصابه ، وتجعله يعطى هذه التوافه أكثر مما تستحق !

راح يطمئن نفسه وهو يواصل السير فى اتجاه مهمته ، أولى به أن يفكر فيها ، أن يحتشد لها ، ولكنها « المهمة » توشك أن تغيب عن رأسه فى ضباب ذلك الصباح المنذر ، فى وجوه المارة التى تبدو له فى هذا الصباح غريبة ومتجهمة ، لماذا يختار مثل هذا اليوم لمثل هذه المهمة ؟

الطريق نفسه سوف يكشف عن غايته ، ويذكره بمهمته ، سوف يتبخر الضباب وبعد قليل تشرق الشمس صافية وضاحية ، ويبصر طريقه •

لكن احساسا بالجوع يتسرب اليه بوضوح ثم بحدة ، ويذكره بأنه ترك بيته على عجل دون افطار ، ليس هناك شىء كالافطار ينبغى أن يتزود به لمهمته التى لا يدرى متى يعود منها ، وسوف يكون ذلك اختبارا آخر لصحة النقود التى يحملها معه • لا ينبغى أن يحمل نقودا زائفة وهو ذاهب لمثل هذه المهمة •

عرج هذه المرة على مطعم فاخر خيل اليه انه كان يمر به دائما فى طريقه دون أن يفكر فى الدخول اليه والتعامل معه ، كان وجه صاحب المطعم غريبا حقا ، يجلس الى صدر المكان على طاولة فخمة بثياب شبه رسمية ، وسمت غريب ، ويتكلم لغة غريبة مع عماله وموظفيه ، لم تكن أناقة المطعم ونظافته وحداثة نظامه هى التى أذهلته فقط ، ولكن وجوه الزبائن والطريقة التى يأكلون بها ، طريقة تضج بالشبق والمتعة وعلى الموائد تتطاير الضحكات ، وبينها يتحرك الخدم بثيابهم الرسمية وبرشاقة لافتة للنظر وبأطباق عليها طعام غريب ، العيون تضج بشهوة الطعام ، كأن الطعام متعتهم الوحيدة ، يجلس الى مائدة خالية ، لا يفهم كلمة واحدة من كلام النادل الذى اقترب منه متوددا ومبتسما وهو يشير الى قائمة الأطعمة ، التى أدرك فى هذه اللحظة انها مكتوبة بلغة لا يفهمها ، تحير قليلا ، يعرف انه فى هذا الطريق تكثر محال الأطعمة الأجنبية ، لكن ليس الى حد أنه لا يعرف لغة واحدة مما تستعملها . وكانقاذ للموقف ، أشار الى الطعام نفسه الذى يأكله الآخرون ، حين جاء اليه النادل بالطعام تأكد له ما كان قد بدأ يشك فيه خلال انتظاره !

لم يكن ما قدمه له يشبه أى نوع من اللحوم المألوفة ، لا لحم طيور أو حيوانات . لحم من اذن ؟ أو لحم ماذا ؟ الجميع يأكلونه بتلذذ غريب ونهم ، لا يمكن أن تكون الطريقة الوحيدة لاختباره هى أن يأكل بالفعل ؟ وماذا لو تأكدت هواجسه بعد أن يكون قد وقع فى خطيئة أكله ؟ ولكن كيف يتأكد وهو لم يذق يوما أبدا هذا الذى يخشى أن يكونه هذا الطعام اللعين .. !

يا له من صباح غريب ، بل يا له من يوم ! ماذا لو أدركوا انه هو وحده الذى لا يأكل ؟ لا يمكن أن يتدخلوا فى حرية الناس الى هذا الحد ؟ أين الخبز ليتظاهر بأكله فقط ... ولكن لا وجود هنا للخبز ولا لشىء آخر سوى اللحوم ، لحوم يشعر شعورا غامضا

بأنها لنوع من البشر يبدو أن هذا النوع من المحال الأجنبية تتخصص فى استيراده وانضاجه بطريقته الشهيرة ، كيف لم ينتبه لما كان يسمعه عن وجود مثل هذه المطاعم التى يبدو أنه تورط فى واحد منها ؟ ...

قام على الفور .. تاركا طعامه ... مقدما لصاحب المطعم قطعة أكبر من النقود ، اعتقد انها تغطى تكاليف الطعام الذى لم يمسه وتزيد .

لم يكد الرجل الأنيق الغريب المتصدر للمطعم يتسلم منه قطعة النقود ويتأملها حتى هب واقفا وعيناه تتسعان بذهول غريب ، ولأول مرة يتكلم بلغة يفهمها كان يتكلم بلغة أهل البلد هذه المرة .. قال له كمن يهمس بسر وهو يعاود تأمل النقود .

ـ معك الكثير من هذه العملة ؟

وقبل أن يسمع منه اجابة عاود الحديث .

ـ مستعد لأن أشترى منك هذه القطعة بمائة من مثيلاتها .. من عملة هذه الأيام .

ثم استطرد دون أن ينتظر توضيحا :

ـ طبعا أنت تعرف كل شىء ، ولهذا جئت لمحلنا ؟

ثم بنظرة بين الشك والرجاء ...

ـ لا تصدق أن هناك من يمكن أن يعطيك أكثر مما أقدم لك .. !

ـ اذا كنت تشك فى كلامى فسوف أعطيك فرصة للسؤال ولكنها لن تكون طويلة جدا . تذكر هذا ، فموعد بيع هذه العملات النادرة يقترب ... أنت تعرف كل شىء ، وثق اننى لا أخدعك ! .

ـ لكى تتأكد من صدق كلامى ٠٠٠خذ هذه النقود المائة فى مقابل قطعتك ، وفكر وهى معك ، دبر أمرك وهى معك ، ثم عد الى فى الوقت المناسب ٠

ـ تذكر أننى لن أنتظر الى ما لا نهاية ٠٠٠ لأشترى منك بقية القطع التى لديك ٠٠٠

كانت هذه آخر كلمة سمعها وهو يخرج من المطعم الغريب الذى لم يذق فيه طعاما ، وخرج منه بثروة لم تكن تخطر بباله ٠٠ ! لم يكن يوما غنيا ، ولم يملك رصيدا فى بنك ٠٠٠ كان دائما مشغولا بمهام غير عادية لا تدخل فيها النقود أبدا ، ما الذى يجرى فى هذا الصباح ؟ فى هذا الشارع الذى كان يظنه يعرف كل شىء فيه ٠ ؟!

النقود التى فى يده حقيقة واقعة ، أصبحت ملكا له يمكنه أن يشترى بها من أى مكان آخر الطعام الذى يسيغه ، بالسحر النقود وقدرتها على التنوع والتلون والتكاثر ، لو كان يعرف لحمل كل ما عنده من نقود فى البيت فى جيوبه كلها ٠٠٠ ولكن ما الذى عرفه حتى الآن بحق الله ومن ذا يصدق ؟ الرجل الذى رمى بنقوده الى عرض الطريق ، أم ذاك الذى يشتريها بمئة ضعف ، لم لا ينجاب ذلك الضباب ليرى الحقيقة ؟ وما الفرق بين النقود التى أخذها والتى دفعها ؟ لم لا يتأكد من الأمر فى أحد البنوك القريبة ؟ ولكن بيته الآن أقرب من أى بنك ٠٠٠ فليعد اليه ، وليستبدل كل نقوده أو بعضها ، وليتأكد فيما بعد ، فالرجل كان صريحا وصارما فى وعده ووعيده بأنه لن ينتظر طويلا ، وما هو آخر موعد لبيع هذه العملات النادرة ؟ وأين ؟ وكيف لم يعرف ان ما كان يمتلكه من هذا النوع النادر ؟ لأول مرة يبدو لنفسه غريبا كأنه من أهل الكهف !

هل يتسع الوقت لهذه التساؤلات البلهاء ؟ النقود التى فى جيبه ، فى يده التى فى جيبه ، تحسم كل تردد ، وتسوقه الى بيته ،

عائدا الى بيته · المهمة التى خرج لها فى هذا الصباح ، المهمة غير العادية يمكنها أن تنتظر قليلا · أما هذا الرجل المجنون فمن يقنعه بالانتظار ؟

عاد الى بيته مهرولا ·· كان يظن أنه وحده الذى يهرول ، ولكنه لاحظ أن معظم المارة يهرولون أيضا ، كيف لم ينتبه الى مثل هذه المسألة من قبل ، يتصبب عرقهم ولكنهم يهرولون ، لا أحد يبصر الآخر ، يصطدمون ببعضهم ولا أحد يتوقف ليعتذر للآخر أو ليعينه على الوقوف لو سقط ·· هذه هى العمارة التى يسكنها ، هذا هو المصعد ، هذه هى الشقة ، يضغط على الجرس ، تفتح له سيدة جميلة جدا ··· فى عينها نظرة زوجة تسأل زوجها عن سر عودته المفاجئة قال لها وهو يدخل حجرته الخاصة : نسيت بعض الأوراق الهامة وجئت لآخذها ··· تأكد له وهو يبحث فى أدراج مكتبه عن النقود التى كان يمتلكها أن السيدة الجميلة جدا والتى فتحت له باب شقته هى بعينها « مآثر » التى كان يحبها ويتمنى أن يتزوجها فى بداية شبابه ، هى الآن زوجته بالفعل ·· هى التى فتحت له باب شقة كان طوال حياته يحلم بمثلها ، « أطفالى الصغار هناك يلعبون فى حجرات فسيحة » ، انهم أولاده نفسهم ولكنهم أكثر نظافة وأناقة وحيوية ، والأثاث بالترتيب نفسه الذى تركه هذا الصباح ولكنه كله لامع فاخر أنيق ، شقة الأحلام هذه كيف تبدلت فى مثل هذا الوقت الصغير ؟ وأين ذهبت زوجته الأخرى وشقته الأخرى وأولاده وقد تركهم فى المكان نفسه منذ قليل ؟

هل يتسع الوقت لكل هذه الأسئلة ؟ لماذا يبدو كل شىء عجلا وغريبا فى هذا الصباح ؟

ـ هل وجدت ما كنت تبحث عنه ؟

قالتها « مآثر » وهى تواصل عملها فى ترتيب البيت ·

ـ ثم أضافت بلهجة اعتيادية :

ـ هل لهذه الأوراق صلة بمهمتك اليوم ؟ ..

قال بلهجة من يكذب لأول مرة :

ـ نعم .

ـ اذا تأخرت لأى سبب فلابد أن تتصل لأطمئن عليك .

ـ طبعا ...

ثم خرج ... شاعرا بأنه يقترب من لحظة غير عادية ، ربما كانت تلك هى المهمة غير العادية التى خرج من أجلها هذا الصباح ، كان لا يتذكر تفاصيل هذه المهمة التى تملأ وجدانه منذ ليال طويلة ... واعتقد أنه سوف يتذكر كل شىء عنها وهو فى الطريق اليها ... كان ذلك حين غرقت الشوارع فى ضباب كثيف هذا الصباح ثم تداعت الأمور ، خرج الى الشارع وقد ملأ جيبه بكل ما كان يملك من نقود . أنه هو الشارع نفسه . لقد انجاب الضباب لتحل مكانه عواصف ترابية تتعذر خلالها الرؤية ، لكن مما يسهل مهمته رغم كل شىء أن المحل فى الطريق نفسه . هذا هو البائع الأول ... الذى رمى بنقوده الى الأرض ... هذا هو البائع الثانى الذى قبلها بقيمتها نفسها ... لكن أين صاحب المطعم ؟

بل أين المطعم ؟ لا وجود لأحد ولا لشىء ... معارض ، بوتيكات ، محال للأقمشة وللأحذية ... معارض ، وجوه أجنبية ، ولهجات غريبة وشارع لا ينتهى وعواصف ترابية تتعذر معها الرؤية !

هل تأخر عن الموعد ، لم يحدد الرجل موعدا ، فقط قال له لا تتأخر . كم الساعة الآن ؟ الساعة فى يده تشير الى الثامنة ...

فى محل لبيع الساعات كانت ثمة ثلاث ساعات كبيرة تشير الى أزمنة مختلفة : العاشرة ، الثانية عشرة ، الرابعة ..

الشمس وحدها تشير الى الوقت الحقيقى ، ولكن الشمس كانت قد اختفت خلف عواصف التراب ، هذا يوم يجب أن يكون فيه كل امرىء ببيته !

لا ينبغى أن يقامر بالابتعاد كثيرا عن بيته الى حد يتعذر معه الرجوع . لكن كيف يعود خالى الوفاض بالرغم من الفرصة التى أتيحت له ؟ ليواصل السير ما دام لا يزال فى الطريق نفسه ... فالشـــوارع رغم العواصف الترابية لا تزال تغص بالناس الذين يهرولون ويصطدمون ولا يعتذرون أو يتوقفون .

أخيرا يلوح له محل الأطعمة الغريبة ، صاحب المحـل بثيابـه الرسمية وسمته الأنيق الغامض ، يتصدر المكان على طاولته الفخمة . الزبـائن ، النـدل ، الطعام الغريب . والضحكات الشيقة ، يتوقف أمام صاحب المحل ، امام منضدته ، لا يمكن أن يكون قد نسيه بمثل هذه السرعة ، يعطيه ما معه من النقود ليعاونه على التذكر ، يتأملها الرجل ويرفع اليه وجها نكدا ملوحا ، هو الذى يتذكر هذه المرة أن هذا الوجه هو وجه البائع الأول نفسه ، وقد ارتدى الملابس الرسمية الأنيقة وكأنه يتنكر فيها ، لا ... لا يمكن أن يكرر فعلته ... ولكنه فعلها ، رمى بالنقود التى أعطاها له ... رمى بها كلها الى العواصف الترابية فى الطريق العاصف المترب ...

عبثا حاول أن يخطف نظرة الى قلب المحل لعلـه يجد الرجل الآخر الذى أعطاه الموعد وأعطاه النقود ... وتجمد فى مكانه حين رآه ... نعم رآه ... جالسا الى أحد المناضد يأكل بالنهم والتلذذ نفسهما ، وبجواره سيدة جميلة جدا تشاركه الطعام والضحكات ،

كانت هى بعينها السيدة الجميلة التى فتحت له باب شقته منذ لحظات ، السيدة « مآثر » التى حلم طول حياته بأن يتزوجها ·

كانت لحظة كالزمن كله ··· ماذا ينقذ ؟ والى أين يتجه ··· ولو فكر فى مجرد العودة الى بيته فهل يمكن أن يجده فى المكان نفسه ؟ ومن تكون زوجه هذه المرة ؟ ··· وكان عليه أن يتخذ قرارا بأسرع من لمح البصر ، وخطر فى ذهنه فى لمحة عابرة أنه ربما تكون هذه هى المهمة « غير العادية » التى خرج من أجلها هذا الصباح ؟ ولكنه يذكر رغم كل شىء انه كانت هناك مهمة أخرى وانسان آخر ··· ولعل هذه مهمة غير عادية جديدة ·

عزيزى القارىء ···

يمكنك دون شك أن تستمر فى قراءة هذه القصة ··· بل وفى كتابتها كذلك ··· ذلك اننى قررت فجأة أن أتوقف عند هذا الحد فى كتابتها ··· لأسباب لا أجد أى معنى لذكرها ! ··

أصوات فى الليل

ضاعت معالم الصوت الذى أيقظه فجأة من نومه ، ضاعت فى اللحظات الفاصلة بين النوم واليقظة ، ولم يتحرك فى سريره حركة واحدة متوقعا أن يتكرر الصوت أو يتكرر ما يكشف عن طبيعته ... ولكن شيئا ما لم يحدث ... ومع كل لحظة تمضى كان سكون الليل يزيد الهوة بينه وبين معالم الصوت الضائع ... بقيت أصوات الليل الرتيبة تتردد فى هدوء ... صوت المنبه يأتى من الصالة فى انتظام ، أنفاس زوجته النائمة بجواره تتردد فى ايقاع يشى باستغراقها فى نوم عميق ! بالتأكيد لم تسمع الصوت نفسه ! أكان هذا الصوت جزءا من حلم رآه هو وحده .. ؟ عبثا حاول أن يتذكر هذا الحلم ، أمكنه أن يتذكر بعد قليل أن الصوت كان يشبه صوت سقوط جسم وانكساره .. طبق أو ما أشبه .. ! ولكنه تذكر فى اللحظة نفسها انه أغلق باب شقته قبل أن يأوى الى فراشه كما أغلق كل النوافذ ، مستحيل أن يكون ثمة لص فى شقته فحوادث السرقة فى الحى الذى يسكنه شبه نادرة ، فمن يجرؤ على اقتحام شقة فى عمارة كبيرة بها ما يؤكد وجود أصحابها ، ففى

الصالة لمبة خمس شمعات تبقى مضاءة طول الليل ... حتى اذا استيقظ أحد الأطفال ليلا أبصر طريقه الى دورة المياه دون خوف !

وأسرة البواب ذى الستة أولاد تحتل مدخل العمارة . ربما استيقظ أحد أطفاله هو ليشرب فأسقط كوبا أو طبقا من مكانه ، ولكنه كان لابد أن يسمع صوت أقدامه وهو عائد الى حجرة نومه ! بالتأكيد ان ما سمعه كان صوتا فى حلم ، لماذا يصر على تذكره ؟ أيسر من تذكر الحلم أن يترك فراشه ليطمئن على أن كل شىء على ما يرام فى شقته ثم يعود الى النوم ! برودة تلك الليلة أبعدت هذا الخاطر عن رأسه لو أسلم نفسه مرة أخرى للرقاد لانزلق بسهولة الى الحلم الذى أيقظه وآنذاك يمسك به ، بذلك الحلم المراوغ من جديد ، وسحب البطانية على رأسه ، وأغمض عينيه ، واستسلم للنوم !!

« راح يهبط فى سهولة درجات سلم العمارة كما لو كان ينزلق عليها ودون أن يخشى السقوط ، ضوء الصباح الباكر ينير طريقه على السلم ، أبواب الشقق مغلقة وساكنة لاتزال ... لاحركة وراءها ... يرتدى ثياب الخروج كاملة ، لا يحمل حقيبة أوراقه الخاصة ، عم محمد البواب يفرك النوم عن عينيه فى مدخل العمارة لا أحد يمكنه الدخول أو الخروج دون أن يشعر به ! « عم محمد » ضخم الجثة ، كثيف الشارب ، جلبابه المفتوح على صدره حتى فى أيام الشتاء يكشف عن غزارة شعر صدره ... شعره كله أبيض عدا شعرات فى شاربه صفراء من التدخين ، مظهر القوة البادى على « عم محمد » لا يتسق مع شحوب وجهه ، وبطء حركته ، وتثاقل صوته حين يهم بالكلام ، أولاده الستة يتكومون فى الحجرة الجانبية الواطئة فى مستوى بدروم العمارة .. حراس العمارة لا يزالون نائمين تسترهم أسمال بالية ، ويحرسهم من برودة البلاط وبرودة الجو حمل صوفى وحيد تتجاذبه الأقدام والأيدى طوال الليل ، وفى النهار يتخذه « عم محمد » متكأ له فى جلسته

المهيبة أمام مدخل العمارة ! « عم محمد » وحده هو الذى ينام فى المدخل ذاته غير عابىء ببرد الشتاء ، يلوذ بمقعد رخامى كأنه تمثال مصرى قديم ملقى بغير عناية فى غير مكانه ! حين أبصره عم محمد نازلا فى هذه الساعة المبكرة زاد من حركة جسمه المتثاقل وسعل سعلة خفيفة ليكون مستعدا لرد تحيـة الصباح ·· ! هم بأن يسأله عما اذا كان قد سمع فى الليل أصواتا أو حركات لداخل أو خارج : ولكنه تراجع حين تذكر أن السؤال سوف يجر الى سؤال وانه هو نفسه لن يجد ما يقوله لعم محمد لو انه قال له : لماذا لم تقم سعادتك لتتأكد من مصدر الصوت فى شقتك ؟؟ وهل سرق شىء من الشقة ؟ كيف نزل دون أن يتأكد من أن شيئا ما قد سرق ! » ·

ـ صباح الخير يا عم محمد !

ـ صباح النور يا بك !

ـ هل جاء بائع اللبن ؟

ـ لا يجىء فى مثل هذا الوقت !

ـ حين يأتى أرسله الى شقتنا !

ـ هو يذهب بنفسه كالعادة فى موعده !

هل أدرك الرجل الضخم الأبله بلاهة الأسئلة ؟

لا يبدو انه أدرك شيئا ، كان يجيب بجدية كاملة وبتثاقل !

عاد يصعد السلم قفزا ، ليجد انه أغلق باب شقته دون أن يكون معه المفتاح ماذا يقول لزوجته عن نزوله فى مثل هذا الوقت ؟ دقات قلبه الذى أتعبه الصعود تختلط بدقاتـه للباب ماذا يقول لزوجته حـين تفتح له ؟ كانت نائمة حين غادر الشـقة ، وكذلك الأولاد ، كيف نزل ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟

بدت له الأجوبة أكثر غموضا من الأسئلة ... حمدا لله لأنه أخطأ فدق الباب دون أن يدق الجرس فوجيء بالباب ينزاح تحت دقاته فى بطء عن مكانـه ، لم يكن الباب مغلقـا اذن ؟ فى الشتاء يصعب احكام اغلاق الباب الا بمجهود ، ينضغط الباب بين المصراعين بسبب الرطوبة ، فيبدو وكأنه مغلق ويحتاج اغلاقه أو فتحه الى مجهود كبير ! كيف نسى هذه الحقيقة عن باب شقته ، كثيرا ما كانوا يتركونه هكذا ليال كثيرة ظانين أنه قد تم اغلاقه ، وفى الصباح يكتشفون انهم لم يسرقوا بسبب من حسن حظهم لا أكثر ، تمنى ألا تصحو زوجته على صوت الباب المفتوح عنوة حتى لا تقول له أين كنت ؟ ولماذا خرجت فى هذا الوقت ؟ زوجته لم تصح من نومها الثقيل ، هو الذى صحا هذه المرة أيضا من نومه ، ممسكا هذه المرة بحلمه المراوغ .. ! ولكنه حين استيقظ كان صوت الباب المفتوح عنوة لا يزال يملأ أذنيه فى قوة !!

وتذكر على الفور الصوت الأول ... صوت الطبق المكسور ، ثم هذا الصوت الثانى ... صوت الباب الذى يفتح أو يغلق عنوة لا يدرى !!

والويل له لو فقـد القـدرة على التمييز بين الحـلم المراوغ أو الحقيقة المراوغة !!

هذا الضوء الخفيف القادم من الصالة عبر زجاج باب حجرة النوم ... حقيقة لا شك فيها ، وسكون الليل ... ووعيه بهذا كله ... كيف يختلف وعي الانســـان فى الحـلم عن وعيه فى اليقظة .. ؟ والى أى مدى ؟ أحيانا كان يعى فى حلمه أنه يحلم دون أن يوقظه ذلك من حلمه .. !

وحين كان يصل الى هذه الدرجة الشفيفة من الادراك ينتابه فرح شيطانى .. ! يفعل كل ما يعجز عن فعله فى الواقع .. يحاول

الامساك بالمستحيل ... يقفز فى المنحدرات ، ويستحم فى الأماكن البعيدة عن الشواطىء .. يرتفع صوته بكل ما يخاف أن ينطق به .. ! يتحرر من قيود الزمان والمكان . ! يتحدى المخاطر مطمئنا الى أن اللحظة المهلكة حين تجىء سوف ترمى باشلائه الممزقة الى شاطىء اليقظة فيصحو مرتعدا ... ململما بقايا فرحه بالمغامرة التى يدرك مدى عقمها .. !

لعالم الأحلام جغرافية خاصة ... فثمة أماكن بعينها تتردد فى أحلامه أشجار وحقول ومساق وتلال ... فى الحلم يتذكر أنه رآها فى حلم سابق وقد لا تشبه أى شىء يراه فى يقظته ... ويتوقع أنه سيرى على الفور وجوها تنبت فى الأماكن نفسه ... وتجىء الوجوه بالملامح نفسها ... وجوه لا تكبر أو تصغر ، فزمن الحلم شبه ثابت ... وربما كان هذا هو الفرق بين اليقظة والحلم ... الزمن ... وعى الانسان بالزمن ! دقات المنبه الرتيبة التى تأتى من الصالة شاهد آخر على أن ما يشعر به الآن ليس حلما ..! هل يقدر انسان على أن يبصر فى أحلامه ساعة تحسب الوقت ؟

الويل له لو فقد القدرة على التمييز بين أصوات الحلم وأصوات الحقيقة ! بين الزمن الثابت والمتحرك ؟؟ اذا كان هبوط السلم وصعوده حلما ، فان صوت الطبق المكسور والباب المفتوح عنوة يتأرجحان فى ذلك الخيط الدقيق الذى يفصل بين الصحو والمنام . هل ينتسبان الى الحلم أم الى الواقع ؟؟

وهل كان الباب يفتح أم يغلق ؟ هل انتهى كل شىء أم انه يبدأ الآن فقط ؟؟

نظر فى ساعة يده الفسفورية . لا يزال الوقت مبكرا جدا ، وقت يناسب اللصوص تماما ، وعليه أن يتحرك الآن من فراشه ليضع حدا لهواجسه ، وقبل أن يعبث به دفء الفراش ويرمى به

الى حلم آخر يغرر به ويخدع حواسه ! ان ما يسمعه الآن حقيقى تماما ، ولكن الحقيقة تبدو غارقة فى السكون ، ويلفها ظلام شفيف ، ولا تبدو لها ملامح ، ومن المستحيل أن يدخل لص شقته ثم يجلس هادئا فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل حتى يعاود أصحاب البيت نومهم لو أن دخوله أيقظهم ؟!

أحيانا كان يفكر فى طبيعة تلك اللحظة التى ينتقل فيها الانسان من اليقظة الى النوم ، محاولا أن يمسك بها ولكنها لحظة مراوغة ككل شىء فى حياته الآن ... فحين تجىء يكون الانسان قد نام فعلا ، واذا ظل محتفظا بدرجة كافية من الوعى لتأملها فانها لا تأتى أبدا ولا يأتى النوم ... يا لها من ليلة مناسبة لمثل هذه التجربة فلا ينبغى أن يستسلم للنوم قبل أن يتأكد من حقيقة الأصوات التى يشك فى انتمائها الى عالم الأحلام !!

تقلبت زوجته فى الفراش ، أدارت وجهها ناحيته ، ردد سكون الشقة صوت هذه الحركة العابرة فكيف يتحرك اللص دون صوت ؟

لماذا لا يهيىء له سبيل الفرار بحركة أخرى أعلى صوتا ؟؟

يشعر اللص بحركة أصحاب البيت فيؤثر الفرار على المواجهة ، فاللص جبان مهما تسلح ، متى سمع بهذه الكلمة ؟ لو أن صوت الباب المفتوح عنوة كان هو البداية فلا بد أن يسمع حركة تالية ، أما اذا كان هذا الصوت هو النهاية فلن يسمع سوى السكون ، ولن تكون ثمة جدوى من قيامه أو حركته .. !فلينتظر بعض الوقت وبمقدوره لو أن اللص لم يخرج أن يحدد مكانه من حركته وأن يفاجئه فيتمكن منه ... هل هو لص واحد أم أكثر ؟ واذا فاجأ أحدهم فهل يلوذ الآخرون بالفرار أم تقع الواقعة ، وتحدث المأساة !!

من جديد تحركت زوجته ... فوجىء هذه المرة بحركتها ، خاف أن يغطى صوت حركتها أى صوت آخر ، ليتها تبقى نائمة

حتى لا يتدخل خوفها فى الموقف ويفرض عليه أو على اللصوص ما لا ينبغى من السلوك الطائش !!

ينتعل اللصوص أحذية كاوتشوك فلا يكون لحركتهم أقل صوت ، ولكنهم لا يمكن أن ينقلوا شيئا دون أية أصوات !!

فى الصالة جهاز تلفزيون ، وراديو ، وريكوردر ، ومجموعة من الفازات البلورية الغالية ضمنها تمثال يعتز به لأبى الهول !! وكلها غنائم يسهل حملها لو استعان اللصوص بسيارة خاصة تنتظرهم فى الخارج • الملابس والحلى والنقود هنا فى حجرة النوم ••• ولا يمكن أن يفكروا فى اقتحامها فاللص جبان مهما ••• من الذى قال هذه الكلمة السخيفة ؟ كيف يكون جبانا من يقتحم منزلا على ساكنيه ؟! وماذا لو اقتحم الحجرة ••• وفى يده مسدس ؟ ان بمقدوره أن يطلب منه أن يعاونه فى تسليم النقود والحلى والملابس •• ؟ وأن •• « صوت اصطدام بأحد كراسى السفرة ••• أقدام الكرسى تزحف على بلاط الصالة » ثم تصمت ••• صمتا مريبا ترتجف له أوصاله •• ! ويتصبب منه عرق غزير بارد • لو كانت زوجته يقظى لسمعت دقات قلبه •• ! أغمض عينيه تماما بينما تيقظت كل خلية فى جسده متوقعا أن يفاجأ بمن يفتح باب حجرة النوم ••• أو ••• قد ينقذ التظاهر بالنوم كرامته على الأقل أمام الزوجة والأولاد •• ! كأنه فوجىء مثلهم بما يحدث • متى سمع بهذه السخافة الأخرى التى تقول ان الصدمة قد تدفع الى النوم أو الاغماء كما تدفع الى اليقظة •• يا ليلة السخافات المرعبة متى تنتهين ! سمع وهو مغمض العينين أنفاس زوجته تتردد فى هدوئها العميق •• ! من له بنوم النساء والأطفال ؟! متى بدأ يفتح عينيه فى رفق كأنه يخشى أن توقظ حركة أجفانه أحدا أو يراها أحد •• ؟ فوجىء بنور الصالة مضاء •• ! لم يصدق عينيه ، هل بدأ يعبث به حلم آخر ؟ أم أن الحقيقة هى التى تعبث به هذه المرة •• ؟ ربما

كان أحد أطفاله فى طريقه الى دورة الميـاه ... لا يجرؤ لص على اضاءة النور ، قد يستخدم بطارية صغيرة ، أما أن يضىء النور .. ؟ توقع أن يسمع باب الحمام يفتح أو يغلق ... أن يسمع صوت السيفون أو الشفاطة ... ولكن السكون المراوغ عاد يطبق على شقته ، استبعد أن ينادى باسم أحد الأولاد خشية أن يرد عليه السكون ، أن يكون الرد حركة قاتلة ، وقد ينم صوته عما يعانيه أو يوقظ من يريد نومهم. فى تلك الليلة المرعبة عليه ألا يفقد القدرة على السلوك السليم ، أقل خطأ فى التقدير قد يعرضه مع أولاده لمأساة فاجعة دونها بكثير أن يفقد بعض محتويات شقته ، كل شىء يمكن تعويضه عدا الحياة .. ! حياته أو حياة أى فرد فى أسرته ، لكن ماذا لو أن أحد أولاده قد سمع الصوت نفسه الذى سمعه ؟ لماذا لم يعد يسمع صوت المنبه ؟! لا يمكنه أن يتأكد من نوم أولاده فى حجرتهم مثلما هو متأكد من نوم زوجته ! وقـد يرتفـع صوت أحدهـم الآن منـاديا : بابا أو ماما ؟! وآنـذاك يخضـع كل شىء للمصادفات المرعبة !! وقد تحدث الفاجعة !!

داخله اطمئنان مستريب حين بدأ يسمع صوت أقدام تتحرك فى الصالة .. ! تتحرك هذه المرة بهدوء وثقة .. ! أقدام صاحب بيت .. ! لا تملك أقدام اللصوص مثل هذا الثبات .. ! ولكنها لا تتحرك فى اتجاه دورة المياه .. ! تبدو وكأنها تتحرك جيئة وذهوبا فى الصالة ... صوت باب الثلاجة المغناطيسى يفتح ثم يغلق فى قوة ... لم يعد لديـه شك فى أنـه أحد الأولاد .. ! يبحث عن طعام ، ربما نام دون عشاء وأيقظته لسعة الجوع .. ! كيف يكون للحقيقة مثل هذه القدرة على الخداع والمراوغـة ؟ هذا النوع من اللصوص لم يظهر بعد فى بلاده ، اللص الجرىء الواثق الهادىء الذى يخدع حتى البوليس ، ويخيف حتى السلطة ، ويسلك كصـاحب حق ، لم يلتق به سوى فى أفلام السينما الأمريكية ، لصوص بلاده

مثل ناسها طيبون عادة ، وخائفون كثيرا ، وبعضهم يسرق بدافع الجوع ، ويطلب من الله الستر !! لماذا لا يرتفع صوته بكلمة واحدة ليشق بثقته ؟! أحس كأن صوته محتجز ... يحاول أن ينادى لكن أحدا لا يسمعه .. ! هو وحده الذى يسمع الأصوات فى الصالة تزداد وضوحا وثقة وهدوءا ، بعض الأبواب تفتح وتغلق دون حرص كما يحدث فى أى وقت من النهار ، كيف لا تصحو زوجته بعد كل هذه الأصوات ؟

لعله تعب النهـار ! لم يتصور أن يـكون للتعب مثـل هذه المكرمة ! لو سمعت مثله هذه الأصوات ! لو عاشت هذه الهواجس ؟ ربما لدفعها الخوف أو الحماقة أو الثقة الى ما لا يدرى من السلوك الطائش ! هل يداخله شك فى أنه أحد أبنائه ؟ كيف يوضح لها أو للأولاد ما لايمكن أن توضحه الكلمات وحدها ؟ وحتى لو تركه اللصوص يفعل ذلك .. فكيف يفهمهم أن وجوده .. مجرد وجوده أهم من كل شىء يمكن أن يخسروه ؟! بعض الناس فى حاجة الى عمر كامل ليدركوا هذه الحقيقـة !! كيف يفهمهم ثم يبقى أبا مسموع الكلمة ، مستحقا لاحترام أولاده وحبهم ! كيف يقول لهم ان أعظم شىء يمكن أن يفعلوه فى هذه الليلة أن يظلوا نائمين حتى ينقذهم ضوء الصباح ؟!

هل استيقظ أحد أولاده فى تلك الليلة المرعبة ليكشف عنه كل الأغطية .. ! وكل الثياب ؟! لا فالخطوات الهادئة الواثقة تزداد وضوحا وثقة والنور يطفأ ويفتح هناك ، والأبواب تفتح وتغلق كأنما ركلا بالأقدام ، والأصوات تصبح كلمات ، كلمات لها حروف ... وتوشك أن يصبح لها معنى .. ! ولن يجدى النوم أو التناوم أمام صلافة اللصوص ! كأن كرامته هى ما يريدونه فى تلك الليلة .. ! وحتى لو ترك مكانه ... ليسلمهم بنفسه كل شىء فواضح انهم لن

يقنعوا بغير اذلاله . هل بدأ يفقد القدرة على التفكير السليم والسلوك السليم ؟ وهل ضاعت منه كما تضيع دائما تلك اللحظة الفاصلة بين النوم واليقظة ؟!

— يمكن أن ننام هنا فى الصالة !

— مستحيل الجو بارد !

— لا معنى لأن نوقظهم حتى نحصل على غطاء !

— لسنا غرباء ... انتم أصحاب بيت هنا !

— هنا دفاية فى الركن ... لم لا نشغلها ؟؟

عبثا حول أن يتذكر الأصوات .. ! أقاربه فى القرية لا ينطقون بهذه اللهجة ، أصدقاؤه فى المدينة لا يصل بهم الجنون الى هذا الحد !

— لسنا غرباء ... أنتم أصحاب بيت !

الصوت الذى نطق بهذه العبارة مألوف لديه . ألفته ترجع لعشرات السنين ، وعبثا حاول أن يتذكر وعبثا حاول أن يتحرك ... كل شىء يخرج من يده : الحقيقة والحلم وحتى الذاكرة .. ! لا سيطرة له حتى على جسده .. أين هى تلك اللحظات السعيدة التى كان يعى فيها وهو يحلم أنه يحلم ثم يندفع الى المخاطرة ؟ ...لو كان ما يراه كابوسا فيجب أن يصحو منه ، ولو كان حقيقة فلا مفر من المواجهة !؟

هاهم قادمون ... أكرة الباب تتحرك ... يراها تتحرك ... الباب ، باب حجرة النوم يفتح فتحة صغيرة ... فى ضوء الشعاع الذى تسلل من الفتحة رأى أذنيه ... نعم أذنيه الكبيرتين ... فى أعلى الأذن اليمنى فتحة صغير كانت أصابعه تعبث بها وهو طفل صغير ، هو صاحب الأذن الكبيرة المشدوخة ، لا أحد سواه يجرؤ على مثل هذا العبث المروع ، « العم سليم الشامى » ، رغم أن

ملامحه كانت مكسوة بالظلال فهى ... هى .. لم تختلف منذ آخر مرة رآه فيها ... منذ ثلاثين عاما لا يكبر ... لا ينال الزمن من وسامته ، من قدرته على صنع الغرائب ، أغلق الباب واختفى فجأة كما ظهر فجأة .. ! كأنما ليمهله .. ليمنحه فرصة للتفكير للتذكر .. ! يتذكر الآن فقط أن آخر مرة رآه فيها كانت فى الحلم ... حلم طويل متقطع وممتد على مدى السنين ، حلم ظل يطارد لياليه !! كل ذلك كان معقولا ... أما أن يتحول الحلم الى حقيقة ؟ فهذا ما يصيبه برعب حقيقى دونه بكثير رعبه من اللصوص ! أحيانا لم يكن يصدق ان قصة الشامى يمكن أن تنتهى الى الأبد ... كأنما كانت عودته فى الحلم نذيرا بعودته فى الحقيقة ... أول مرة رآه فيها رأى العين كانت فى الليل .. ! وهو طفل مستكن فى عباءة والده ... والعم سليم يتكلم كلاما عذبا ورائقا وصافيا ... وأبوه يسمع فى دهشة ... وانبهار قصة القرابة القديمة بين الأجداد .. وزيارات قديمة للقرية ... بعد أقل من شهر واحد رأى فى عيون كل الناس فى قريته الدهشة نفسها والانبهار نفسه وأصبح « العم سليم » الذى لا بيت له ولا زوجة ولا ولد ينتقل بين كل البيوت ، ويأكل على كل الموائد ، ويحبه جميع الأطفال ، وتحبه أكثر أمهاتهم .. ! حلاوته لا تنسى ، قدرته على حل المشكلات لاتنتهى ، لبياضه المشرب بالحمرة ، ولدقة ملامحه ، كانوا يسمونه الخواجة سليم أو العم سليم الشامى ، من يبيع الأرض ، ومن يشتريها ، ومن يزرعها ، ومن يطحن الحبوب ، ومن يداوى الحيوانات أو الناس ومن يصلى بهم ومن يرمى بهم فى السجون .. ! العمدة والخفير والمدرس وضابط النقطة والفلاح والميكانيكى الجميع يجدون عنده حلا للمشكلات التى يستعصى عليهم حلها ، ولكنه هو نفسه بقى مشكلة بلا حل . فلا أحد يعرف حقيقة البلد الذى جاء منه رغم كل الحكايات ولا الغرض الذى بقى من أجله رغم كل الخدمات !!

وكيف يعيش فى القريـة رجل غريب بلا زوجـة أو أطفال أو عمل ، يسكن متوحدا فى أحد البيوت تخدمـه دائما بنت من القرية ، يعرف كل شىء عن بلدهم ، ولا أحد يعرف عنه شيئا حقيقيا يريح القلب ؟!

من الذى رفع صوته بهذا السؤال ؟ ثم صمت حين أيدتـه جميع العيون بينما خرست كل الألسنة ٠٠ ! « شلبى » الأجير الذى يزرع فى أرضهم ، هو الذى كان يكن له كراهية عميقـة ، « ابن الكلب » هكذا كان يتحدث عنه يأكل أطايب الطعام فى كل البيوت ٠ البخلاء لا يبخلون عليه ، مكانه فى الظل ، وشرابه الماء الرائق ، جيوبه ملأى بكل ما يحبه الأطفال ، وضحكات النساء وراء الأبواب من أجله ، وعيونهن عليه ، والناس كلهم يتبعونه كالكلب !!

كراهية شلبى له ، وحديثه عن هذه الكراهية هو الذى أفسح الطريق أمام كراهيـة النـاس ٠٠٠ كراهيتهـم المقهورة الخفيـة الغامضة ٠٠ ! حتى هو فى ذلك الزمن البعيد ٠٠٠ اكتشف بدوره أنه يكره العم سليم كراهية خفيـة ٠٠٠ تقاوم حلواه التى لا تنفد ، وتصطدم أو تتفجر بحب أمه له ، « للعم سليم » ، كلما زارها فى غيبة أبيه ، كلما وجدها تصر على مجالسته وتحيته ، كلما وجدها تصمت عن هذه الزيارات أحيانا ، وتشير الى بعضها أحيانـا أمام أبيه ، وأصبحت متعته وهو صبى أن يبحث عن هذه الكراهية فى همسات الناس ، فى نظراتهم ، أن ينصت اليها ، أن يحس بها حين يخرسون عن الكلام ، أن يطمئن الى وجودها فى نفوسهم جميعا ، كأنما يخشى أن يفتقدها ذات يوم ، وأسعده أن يجد هذه الكراهية ذاتها فى نفس أبيه ٠٠٠ فى أعماق نفسه ٠ لمادا لا يفصح أبوه عن كراهيته كما يفعل « شلبى » ؟ وتعمد ذات يوم أن يردد أمام أبيه أقوال « شلبى » عن « العم سليم » وفوجىء بأبيه يصمت صمتا مريبا وكئيبا ، ويدعوه بدوره الى الصمت ، ما الذى يحدث فى هذا البلد ؟

ولماذا أمه وحدها هى التى ترحب به ترحيبا حقيقيا لا أثر فيه للكراهية ؟ رغم أذنيه الكبيرتين المضحكتين ، مرة فىأحد أحلامه حاول أن يمزق أذنه الكبيرة بأظافره ، وفوجىء بأن هذه الأذن صلبة كأنها مصنوعة من العظم الرقيق الناعم ، لحظتها تقصفت أظافره وبكى ، وظل « العم سليم » يضحك ويقهقه وهو ينزله من على كتفيه، ويحذره من أن يعاود المحاولة حتى لا يؤذى أنامله !!

فى الشهور الأخيرة عاود زيارته فى الأحلام والغريب أنه كان يرتد فى هذه الأحلام طفلا بينما يظل العم سليم الشامي محتفظا بشبابه الدائم ، فى هذه الأحلام كان يهم فى كل مرة بسؤاله عن الطريقة التى خرج بها من قريتهم ولكنه لم يظفر منه باجابة واضحة لهذا السؤال ... ولا يزال الغموض يكتنف هذا اليوم الذى خرج فيه العم سليم من القرية كما يكتنف حياته كلها !!

كل ما يذكره عن هذا اليوم هو الظروف التى أحاطت به . كانت شقيقة شلبى الأجير الذى يزرع فى أرضهم قد أصبحت هى التى تقوم بخدمة العم سليم الشامى فى منزله النائى ، يذكر أن « شلبى » قاوم ذلك فى أول الأمر وفى النهاية خضع لأوامر أبيه الذى هدده بالطرد من أرضه . وجاء يوم لا ينسى قتل فيه شلبى شقيقته . وأقسم ليقتلن العم سليم الشامى نفسه ، ولكنه لم يقتله . لقد فوجىء الناس فى قريته باختفاء العم سليم الشامى فجأة كما ظهر بينهم فجأة ، وآنذاك تكلم جميع الناس فى القرية عن كل شىء ، حتى عن الأسباب التى قتل شلبى من أجلها شقيقته .. !

كانوا يتكلمون فى همس ، وأحيانا فى نحيب ، كيف تركوه يهرب ، وقتها صرخ شلبى : كيف تركتموه يبقى ؟ ولأول مرة رأى أباه يبكى ويقول بصوت يتخلل نحيبه « من العار أن نظل نتكلم فى هذا الأمر ، لقد رحل الرجل عنا فلننس هذا الموضوع ! » .

شلبى وحده هو الذى لم ينس ولم يسكت ، ظل يتكلم ويتكلم حتى قال عنه الناس أنه قد جن ، ثم اختفى بدوره عن القرية ، وقال بعض الناس انه يطارد العم سليم ليقتله ، وهمس آخرون : ضاق الناس بكلامه عن الموضوع وبجنونه فقتلوه وألقوا بجثته فى الرياح ليستريحوا ويستريح !!

ها هو « العم سليم الشامى » يعود ... يعود فى الحقيقة لا فى الحلم وبالتأكيد جيوبه ملأى بالحلوى ، ولن يدهش لو خرج الآن ليجد أولاده قد استيقظوا على صوته فاستأنسهم ، والتفوا حوله يسمعون قصة شائقة ورائعة عن عمهم الغائب أو عن قرابة الجدود ... قصة يصدقونها ويبتلعونها مع حلواه ... ثم تصحو زوجته لتسمع بدورها القصة نفسها ، ويومض فى عينيها البريق ذاته الذى كان يلتمع فى عينى أمه . ذلك لص من نوع غريب ومرعب . ذلك أنه لا يضع كرامة ضحاياه فى مأزق ... على الأقل فى بداية الأمر ولكنه سوف يضع حياتـه كلها وحياة أولاده مع الأيـام فى مأزق لا مخرج منه !!

ماذا ينتظر ؟ لماذا لا يخرج الآن مرحبـا ومستفسرا عن سر اختفائه وغيبته ؟ يجب أن يتركه يطمئن اليه فى البدايـة ، حتى يتمكن من الحصول على سكين من المطبخ ... لم لا ... لا يجب أن تكون ثمة بداية من أى نوع ... حتى لا ينزلق الى هوة الصمت المريب التى سقط فيها أبوه ... وسقطت القريـة كلها ! لتكن البداية هى الوصول الى المطبخ ، والحصول على سكين من هناك ... ولتكن لحظة العناق بين الرجلين هى لحظة البداية والنهاية ... يعرف أن العم سليم لا يخدع بسهولة .. ! وقد يسبقه الى ما يسعى اليه ، لكن ليحدث ما يحدث .. ! ليمت هو نتيجة ذلك بيد سليم الشامى أو بيد أحد أعوانه ... فموته بهذه الطريقة الفاجعة سوف يسد الطريق أمام سحره الأسود ... لن يستمع الأولاد لكلامه

الرائق المسموم ولن يصدقوا الى الأبد الرجل الذى قتل أباهم أمام عيونهم ٠٠ ! دمه أو دم سليم الشامى يجب أن يسيل أمام عيونهم حتى لا تتكرر المأساة ! ليس هناك من طريق آخر ، زوجته بدأت تتحرك بجواره حركة من يستعد لليقظة ٠٠٠ كأنما أيقظها الصوت المسموم ٠٠ ! أو أيقظها صوت الأولاد فى الصالة ٠٠٠ وقد بدأوا يتحدثون مع العم سليم ! كيف نجح فى استمالتهم بهذه السرعة ، وأزال عنهم خوف المفاجأة ٠٠ ! لا حدود لقدرة هذا الشيطان ٠٠٠ ولا سبيل للمواجهة سوى أن يتذرع بشجاعة وذكاء بغير حدود كذلك لينقذ مغامرته من العقم ٠ ماذا ينتظر ؟ يقفز من السرير نشيطا وكأنه لم يكن نائما قط ، سرت فى جسده رعشة دافقة ٠٠ ! رعشة رجل يواجه الموت فترتعش كل خلاياه بنبض الحياة ٠٠ ! شجاعته وحدها هى التى ستنقل لسليم الشامى الخوف من الموت ، فخوف انسان هو دائما ثمرة لشجاعة انسان آخر ، تسلل الى المطبخ على أطراف أصابعه ،لينتهز فرصة انشغاله مع الأولاد ، هل وزع سليم أعوانه هنا وهناك ٠٠ ؟ لا يجب أن تنم خلجات وجهه عما ينتويه ! عاد من المطبخ واضعا السكين فى جيبه ٠٠٠ عاد الى حيث يجلس اللصوص فى حجرة الصالون مرحبا وفاتحا ذراعيه للحظة المهلكة ، اللحظة المهلكة تدنو منه كلما اقترب من سليم الشامى ٠٠٠ من عينيه الساحرتين اللتين تومضان ببريق الترحيب وكأنه صاحب البيت ٠٠٠ البريق ينفذ فى عينيه ، يخترقه ٠٠٠ يكشف طويته أمام سليم الشامى البريق النافذ يتكلم : « كنت أحملك على كتفى ، تعرف ان أذنى لا تعركان ٠٠ ! منذ لحظات كنت ترتعد خوفا من اللصوص ، كنت مستعدا للتضحية بأى شىء لتنقذ كرامتك أمام الزوجة والأولاد ! لن أمس كرامتك ٠٠٠ فلست سوى صديق قديم لوالدك ٠٠٠ لن تكون فى حماقة شلبى ! واذا كان لابد من العراك فلم العجلة أيها الأحمق وقبل أن تعرف شروطى ؟! لم لا تنتظر على حياتك فهى التى

سـوف تزهق لو واصلت حماقتـك ... بيد أحـد أتباعى ... ألا تراهم ؟ لست أحب أن ألوث يدى بدمك ... سأبقى بعدك لأقتل بيدى هاتين التابع الذى قتلك ... سأقنع أولادك بأننى الذى ثأرت لهم ، ولن يحول موتك بينى وبينهم ، والزمن كفيـل بأن ينسيهم كل شىء !؟ كن عاقلا كما كان أبوك ، فقد ظفر على الأقل بحياته ، أنا مستعد للابقاء على حياتك من أجل أمك ... كنت أحبها حقا ، ولكنك فهمت خطأ هذا الموضوع ، لماذا لا تتركنى أشرح لك الأمر ؟ كنت صغيرا ... ولو سمعتنى الآن بعقـل الرجل لتغيرت أشياء كثيرة ، الدنيا تغيرت وكنت أظنك قد تغيرت وبدأت تفهم دنياك !

ـ أهلا العم سليم الشامى ... لازلت شابا يارجل !

ـ أنا سليم المغربى ... هل نسيت ؟

لا لن تخدعنى عن حقيقتك هـذه المرة ! العينان النافذتان تواصلان حديثهما المسموم وسط كلمات الترحيب وقبل أن يتعانق الرجلان عناقهما الدامى المهلك !

العم سليم يحمل « نور » صغرى أولاده على كتفيه كما كان يفعل معه ، وهو صبى ، يحملها كرهينة وكدرع فى الوقت ذاته ، لن تفلت منى هذه المرة ولو ماتت نور !

الدم وحده هو الذى سيمحو سحرك الأسود ، ولو واصلت الاستماع الى حديث عينيك فسوف يبقى صـوتك بينما يحتوينى الصمت المريب الى النهاية ، أنا ألقاك هذه المرة فى الحقيقة لا فى الحلم ، وهذا جسدك ملء ذراعى ... وأصبحت لا أرى عينيك ! يده ترتفع بالسكين فى حركة خاطفة كالبرق ، ويسمع صوت السكين تنغرس فى ظهره ... فى لحـم ظهره وعظامـه ... تماما عنـد القلب .. !

اللحظة المهلكة تغشاهما معا بما يشبه الدخان ... بما يشبه الاختناق ... ورغم كثافة الدخان يرى وجوه أبيه وأمه وشلبى وأهل قريته كأنما تجمعوا كلهم على صوت الصرخة المدوية التى أطلقها القتيل ! فمزقت سكون الليل وجمعت حوله أيضا الزوجة والأولاد .

ـ ماذا حدث ؟ قالتها الزوجة الملهوفة بلهفة ! وهى تحيطه بذراعيها فى حنان !

ـ لا شىء ... كابوس ثقيل !

ـ بم كنت تحلم ؟

ـ لا شىء ... لا شىء .. !

ـ استرح قليلا ... سأفتح النافذة وأصنع لك شرابا ساخنا !

ـ ...

من الصالة سمع شهقة زوجته ، هم بأن يسألها .

ـ ماذا حدث ؟ ولكنه لم يقدر أو لعله لم يجد لديه أقل رغبة !

هى التى عادت بنفسها لتقول له بصوت مضطرب « باب الشقة نصف مفتوح ، التلفزيون والراديو وتمثال أبى الهول لا وجود لهم فى الصالة .. ! لابد أنهم اللصوص . ربما سرقت أشياء أخرى .. !

صمتت حين وجدت زوجها صامتا ... لا مباليا كئيبا .. ! قالت وكأنما تداركت شيئا .

ـ ماذا بك ؟ بماذا تشعر ؟ لم لا تتكلم ؟

ـ ...

ـ لا يهم أى شىء ؟! المهم سلامتك أنت ! كل شىء يمكن تعويضه ... المهم أنت . المهم سلامتك .

ـ ...

ـ لماذا لا تتكلم ؟ فبم تفكر ؟

« كيف يوضح لها فيم يفكر ؟ كيف يقول لها ان الرجل الذى يعجز عن التمييز بين أصوات الحلم وأصوات الحقيقة لا يمكن أن يكون رجلا سليما ؟ كيف يوضح لها أن الحقيقة أصبحت تراوغه هى الأخرى كالأحلام ؟ وأن اللحظة الفاصلة بينهما تهرب منه دائما ؟ كيف يوضح لها أنه لم يعد يملك سوى شجاعة الأحلام حيث تصبح كل المغامرات عقيمة ؟ كيف يوضح لها ذلك كله دون أن يدفعها الى العجز عن التمييز بين العقل والجنون فى كلامه .. ؟ وقتها تذكر شلبى ... وتذكر أنهم قتلوه ... فواصل الصمت ... بينما صرخت زوجته صرخة مدوية تجمع حولها الجيران ... وكان النهار قد بدأ يطلع !!

حرصا على سلامة النزلاء

كان يوما مثل بقية الأيام .. وفى الصالة الكبرى بفندق « النسر الذهبى » كانت الساعة تدق الخامسة كعادتها كل يوم فى الموعد نفسه .

وكما يحدث فى كل الأيام كان هناك من ينتبه الى دقات الساعة دون أن يشغله هذا الانتباه عما هو فيه . وكان هناك من يرسل بصره الى الركن الذى يتحرك فيه بندول الساعة حركته الرتيبة ثم يتبع هذه النظرة بنظرة أخرى الى ساعته ليتأكد من دقة توقيتها ، وطبعا كان هناك من لا يشعر أصلا بهذه الدقات .

كان يوما مثل بقية الأيام . أبواب الفندق الدائرية تدور ، يدخل نزلاء ويخرج آخرون فى حركة الباب الواحدة نفسها ، موظف الاستعلامات تطل من عينيه دائما تلك النظرة المرحبة التى تتوقع سؤالا ، عاملة التليفون ورجل البار ، وحاملو المشروبات يتحركون كل فى دائرة عمله حركة جديدة وقديمة ، وينطقون الكلمات نفسها لنزلاء قدامى وجدد بحرارة غير متكلفة وكأنهم ينطقونها للمرة الأولى .

لم يكن هناك ما يجعل أحدا يتوقع أن يحدث شيء غير عادى فى حياة الفندق اليومية العادية ٠٠ الفندق مثل كل شيء فى الحياة له مظاهره التى يحرص على ظهورها وله خفاياه التى يحرص على اخفائها ٠ وقبل أن تدق الساعة دقاتها الخمس الرتيبة بقليل كانت حياة النزلاء داخل حجرات الفندق تمضى هى الأخرى فى ايقاعها اليومى نفسه ، رجال ونساء يأكلون ويتكلمون ويفكرون ويبتسمون ويتشاجرون ويتعانقون ولا يقولون كل الحقيقة ، وكأنه من الضرورى أن يكون هناك شيء فى الخفاء لكى تمضى الحياة فى ايقاعها اليومى ٠

فى الحجرة رقم ١٠٥ كان « أحمد سعيد » يتمدد على كرسيه المريح فى الشرفة وهو يرسل نظرة كسولة الى أسطح المنازل المجاورة ويرتشف على مهل قدح القهوة الذى تسلمته زوجته من النادل لتضعه بنفسها أمام زوجها قبل أن تعود لاستكمال زينتها أمام المرآة ٠

بطرف عينه كان يلمح صورتها فى المرآة من مكانه ، جميلة وأنثى وعاقلة ، يظهر عقل الانسان فى كل كلمة يقولها أو لا يقولها ، بل فى حركات جسده ، ويكاد يظهر فى المرآة ٠٠ ومع ذلك فقد كانت رحلتهما معا الى هذا البلد والى هذا الفندق بحثا عن عمل جديد وحياة جديدة آخر حل يائس لجأ اليه « أحمد سعيد » ليضع حدا أليما وناجحا لقصة حب غير مشروع كادت تعصف بحياتهما الزوجية ٠

كان هو الذى غرق فى هذا الحب غير المشروع رغم ما تمتلكه زوجته من جمال وعقل ، أى سحر تمتلكه دائما تلك المرأة التى نحبها ولا نمتلكها ؟ كان بمقدوره الآن أن يتأمل قصة حبه وكأنها قصة حب انسان آخر ٠

وأن يتساءل عن لغز القلب البشرى وعن حقيقة ما يريده الانسان وما لا يريده حين يقول : اننى أحب هذه المرأة ٠

كالزلزال تجىء لحظة الحب ، تشعر بها كل خلية فى جسد الانسان وبدون شعور يتحرك المرء فى كل اتجـــاه طلبا للنجاة أو النجدة فلا تفعل هذه الحركات اليائسة العشوائية سوى انها تجعلنا نشعر أعمق وأخطر بالزلزال وبالحب ٠٠٠ ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الأسئلة اليائسة والأجوبة الأكثر بؤسا حين نحاول أن نقنع أنفسنا بما ليس فى حاجة الى اقناع ، وان نعقل أبعد الأشياء عن العقل ٠٠ هل هناك أكثر حماقة من عقد المقارنات بين المرأة التى نحبها ـ بدون حق ـ والمرأة الأخرى التى مات حبها فى قلوبنا مع أنه يملك كل حق فى البقاء ٠

البلاهة وحدها هى التى تحمل المرء على أن يخرج من هذه المقارنات بنتيجة تبرر ما لا يحتاج الى تبرير ٠

ورغم ذلك فانه الآن فقط يعتقد أنه لم يكن أبله تماما حين قرر مع المرأة التى أحبها أن يضعا معا بارادتهما حدا لحبهما ٠ اليائس ٠

قالت له : الحل الوحيد الممكن هو أن تسافر ٠٠

ثم أضافت حين ظـل صامتا : وكأنها تجيب على أسئلة لم يسألها ٠٠ الباقى يتكفل به الزمن ٠٠ لحظتها لم يجد معنى لأى كلام يقوله ، ولكنه كان يدرك المعنى الكامن وراء كلامها ٠٠ لم يعد كلاهما يقوى على اخفاء حبه ولا على اعلانه ٠

كل الطرق مسدودة عدا طريق السفر ، وكما تقول هى سوف يتكفل الزمن بالحب وبالألم ، هل تملك الأيام القادمة لحظة يبرد فيها هذا الجحيم المشتعل تحت جلده ؟؟ ٠ نعم تملك ٠٠ كان يدرك هذه الحقيقة كما كانت تدركها هى ومن هذا الادراك القاسى نبـع قرارهما المشترك ٠

لم يكونا صغيرين ، ومع ذلك فقد كان أجمل ما منحه لهما هذا الحب غير المشروع أنه أعادهما لساعات لا تنسى من عمرهما الى سنوات الشباب الأولى ، ولكنهما فى لحظة الحسم أدركا هذه الحقيقة التى يعجز الشباب عن ادراكها .. ان هذا الحب الجميل الرائع سوف ينتهى حتى لو تحديا كل شىء حولهما ، وانهما سوف يخسرانه هو أيضا ضمن الخسائر الأخرى الكبيرة .

انه لا يصدق أنه أفلت حقا بقصة حبه تلك .. لم تشعر زوجته بأى شىء .. ولم تكن هذه النتيجة ثمرة لحكمته وحده بل ثمرة لكياسة المرأة الأخرى التى أحبها والتى شجعته فى لحظة الحسم على قرار السفر .. ماذا كان يمكن أن يحدث لو عرفت زوجته أو حتى ساورها الشك فى علاقته بتلك المرأة الأخرى ؟ .

بمقدوره الآن أن يتساءل على مهل عن معنى الحب ومعنى الحقيقة ؟ يترك للزمن اطفاء الحرائق لتى أشعلتها .

ما قيمة الحقيقة ؟ أية حقيقة ؟ اذا كان الانسان لا يعرف عنها شيئا .. المعرفة .. متى تكون نعمة ؟ ومتى تكون نقمة ؟ الجهل .. متى يكون الفردوس ؟ ومتى يكون الجحيم ؟ هل أفلت حقا بقصة حبه ؟ أم أنه أضاعها ؟ أحقا أنه لم يبق منها سوى تلك المجموعة من الرسائل التى لم يقو على احراقها فاحتفظ بها فى احدى حقائب السفر ؟ ماذا لو رأت زوجته بالصدفة تلك الرسائل ؟؟؟ هل يمكن أن تغفر له ؟ انه خدعها ذات لحظة ؟ هل تذكر له أنه فعل أمرا غير عادى لانقاذ حياتهما معا ؟ . يستطيع أن يترك للزمن مهمة اطفاء الحرائق ، ولكنه لا يمكنه أن يترك هذه الرسائل للعبة المصادفة .

فالزمن قد ينجح فى أن ينسينا الحب لكنه لا ينجح عادة فى أن يجعلنا ننسى الاهانة ..

دهمته هذه الفكرة كطعنة سكين ، هذه الرسائل وحدها هى التى ستبقى الى آخر العمر محتفظة بوهج حبه ، لكن قلبه الذى يحترق الآن بنيران حقيقية هو الذى لن يبقى على حاله ، هو وحده القابل لأن يحترق مرة أخرى بحب آخر ·· لا لن يتعجل احراق الرسائل ·· ولن يعدم طريقة لاخفائها ولن ··

ـ فيم تفكر يا أحمد ؟

ـ فى حياتنا الجديدة يا عزيزتى ··

ـ أتعرف ؟ كأننا عروسان ·· قالتها وهى تغمز باحدى عينيها ·

ـ ألا تخافين أن يسمعك الأولاد ؟

ـ انهم يلعبون فى حديقة الفندق ·

ـ لماذا لا نمثل اذن دور العروسين ؟

ـ نمثل ؟ أتلك هى الكلمة التى وجدتها ؟

ـ دائما تخطئنى الكلمة المناسبة يا عزيزتى ·

ـ قم وأغلق الباب بالمفتاح ·

ـ نسيت أننا سنستقبل ضيوفا فى الساعة الخامسة ، وانك ···

ـ اللعنة على كل الضيوف ·· أنت الذى نسيت موعدهم ولم تلبس بعد ثيابك ·· و ·· دق باب الحجرة حين كانت الساعة تدق الخامسة ··

فى الحجرة رقم ٥٠ كان « عادل السلامونى » يعقد رباط عنقه أمام المرآة ويرى فى المرآة نفسها زوجته وهى تقاوم كلمات على شفتيها ثم تنطق بها ··

– لا أصدق أننا جئنا حقا الى هذه البلد ..

– دائما الأشياء الجميلة تبدو غير مصدقة ..

– لا أظن أن جمالها وحده هو الذى يجعلها كذلك .

– تعودين لاثارة الشكوك .

– يولد الانسان بلا شكوك .. ما تفعله هو الذى يزرعها ..

– يا عزيزتى أنا لم أفعل شيئا .. الشركة هى التى فعلت .. هى التى أعطتنى هذه المكافأة .

– لو كانوا يكافئون الناس بهذه الطريقة لما اضطر أحد أن يخرج من بلده .

– تتهميننى اذن بالسرقة ..

– لا اتصور ذلك لحظة واحدة فأنا أعرفك جيدا .

– ماذا اذن تتصورين ؟

– ليتنى أستطيع أن أتصور شيئا محددا .

– لم يخترعوا بعد وسيلة لانقاذ من يصر على تعذيب نفسه .

– لا أحد يصر على أن يعذب نفسه .

– بودى لو أعرف ما الذى تريدينه بالتحديد من العودة الى هذا الحديث ؟

– الحقيقة .. لو كنت تريد أن تقولها .

– لو قلت لك ان صديقا أقرضنا هذا المبلغ ، سوف نسدده بعد أن نعمل هنا هل تصدقين ؟

ـ ليت الناس بهذه الطيبة ٠

ـ لأننى أعرف أن هذا رأيك فى الناس لم أشأ أن أخبرك بهذه الحقيقة منذ البداية ، مع أن فيهم ٠٠

« فى المرآة لمح فى وجهها رغبة فى تصديقه ، ولو أضاف لهذه القصة ما يجعلها قابلة للتصديق ٠٠ » ٠

كانت هى التى قاطعته بلهجة معتذرة بعد أن ألقت نظرة على ساعة يدها ٠٠

ـ أسفة يا عزيزى ٠٠ الساعة الآن تقترب من الخامسة ولا يجب أن نقابل الناس بهذا الوجه المتوتر ٠

ـ أنت التى تعودين لهذا الموضوع بمناسبة وبدونها ٠

ـ أعدك ألا أعود اليه ٠٠ سأترك للك اختيار الوقت المناسب لتشرح لى كل شىء ٠٠ المهم أن توفق الأن فى مقابلتك القادمة ٠

أتم فى عجلة رباط عنقه ، وراح ينسق الأوراق التى سيحملها فى المقابلة الهامة التى سيحل موعدها بعد قليل ، والتى سيتقرر فيها الكثير بالنسبة لمستقبله فى العمل فى ذلك البلد الجديد الذى قدم اليه ٠

وضع الأوراق كلها فى الحقيبة الجلدية التى لم تفارقه منذ هبطا الفندق ، ولو ألقت زوجته نظرة فاحصة لمحتويات الحقيبة لعرفت الحقيقة التى تبحث عنها ، يتمنى كل الناس أن يعرفوا كل الحقيقة ولكن كم منهم يمكن أن يبقى على حاله لو عرفها ؟

كيف يكون حال زوجته لو عرفت ان المبلغ الذى يملكه فى هذه الحقيبة أضعاف المبلغ الذى تعرف انه حصل عليه مرة كمكافأة ومرة كسلفة من صديق ٠

كيف يكون حالها لو عرفت أنه حصل عليه فى لعبة قمار ؟

البلهاء تظن أنه كان يجرؤ على مغامرة السفر الى بلد جديد وهو لا يملك سوى مبلغ يزيد قليلا عن أجرة السفر والاقامة لمدة أسبوعين ، يصاب الناس بالهوس من أجل أن يعرفوا الحقيقة التى يمكن أن تصيبهم بالجنون ٠

ولكن لماذا الجنون ؟ كان هو فى أحسن حالات عقله وهو يصنع هذه الحقيقة التى لا تقوى زوجته على مجرد معرفتها ٠

كان يقف على الحافة المهلكة فى لعبة القمار التى استدرجته اليها تسلية بدت فى أول أمرها بريئة ، وفى لحظة من الصحو النادر التى لا تحدث فى حياة الانسان كلها سوى عدد قليل من المرات رأى عمق الهاوية التى يقف على حافتها ٠ ورأى أنه لا سبيل الى النجاة الا بتمزيق آلاف الخيوط الدقيقة التى اجتذبته الى هذه الحافة فى ضربة واحدة تجمعت قوتها فى ارادته حين ربح المبلغ الذى يحمله الآن فى حقيبته ، كيف تتصور زوجته وهى التى لم تجرب مرة واحدة لحظة المقامرة نوع الارادة التى كان فى حاجة اليها ليفلت بهذا المبلغ من حلبة اللعب ؟ ولكن هل أفلت حقا من نداء المقامرة ؟ ألم يفعلها مرة أخرى حين قامر بخروجه من بلده بهذه النقود بعد استبدالها بعملة صعبة فى السوق السوداء ؟

والآن وقد أفلت بالنقود وبنفسه وألقى بجسده المنهك على شاطىء الأمان يمكنه أن يؤلف لزوجته قصة تمنحها أمانها الخاص ، ولتذهب الحقيقة المهلكة الى الجحيم مع كل الراغبين فى أن ينتحروا بها ، ولن يعود الى الفندق الا وقد وضع هذه النقود فى أحد البنوك لينتهى قلقه وقتها الى الأبد ٠

والآن يا عزيزتى وبعد أن أعود سأوضح لك كل شىء ، المهم أن أراك الآن مبتسمة و ٠٠ خيل اليه أنه يسمع طرقات على الباب ٠

في الحجرة رقم ١٥ كان سامى بركات يلقى نظرة أخيرة على المرآة . قال لنفسه وكأنه يخاطب صورته فى المرآة :

ربما تكون هذه آخر مرة أراك فيها ياسيد « سامى بركات » سيكون من الصعب أن أنساك أيها الصديق بعد عشرة دامت أكثر من عشر سنوات . بعد ساعات أستقل الطائرة عائدا الى بلدى ، وبعد أن يلقى موظف الجوازات آخر نظرة غير فاحصة على صورتك يا سيد « سامى بركات » ، بعدها استرد وجودى وحقيقتى ، بعدها يعود الى الدنيا عادل سالم ، أنا عادل سالم ، لم يعد هذا الاسم قادرا على أن يجعلنى ألتفت الى الوراء عند سماعه .. هل يمكن أن ينسى المرء اسمه الحقيقى مهما غاب عنه ؟ وما حقيقة أى شىء فى هذه الدنيا ؟ وما معنى حقيقة لا يصدقها أحد ولا يعترف بها أحد ؟؟ كان من الممكن أن يقضى جزءا من هذه السنوات فى السجن نتيجة خطأ تورط فيه وهو فى بداية شبابه ، لولا جواز السفر الذى يحمل اسم « سامى بركات » الذى يشبهه الى حد كبير . قال له صديقه أحمد يومها :

ـ ليس أمامك ترف الاختيار .

وكانت ظروفه أعقد وأخطر من أن تتركه يتردد أمام المخاطر وكانت أية مخاطرة محتملة أخف وطأة من السجن المؤكد وضياع المستقبل والسمعة .

سيكون أحمد بانتظاره فى صالة المطار ، أحمد وحده هو الذى يعرف القصة الكاملة ، هو الذى يعرف كيف أصبح « عادل سالم » « سامى بركات » فى بلد آخر غير بلده وكيف أثبت خلال ما يزيد على عشر سنوات أنه كان يستحق شيئا آخر غير السجن ، يستحق الشرف والتكريم والثروة التى حصل عليها حين أتيحت له الفرصة

الملائمة . لكن يبقى السؤال ما قيمة أية حقيقة لا يعرفها أحد أو لا يصدقها أحد ؟

ما قيمة حقيقة يدين بوجودها لسبب بسيط جدا هو أن أحدا من موظفى الجوازات لم يصر على أن يؤدى واجبه على الوجه الأكمل ..

لا يزال شيء فى داخله يرتعش بالخوف ، خاصة وقد أصبح لديه ما يخاف عليه .

يجب أن يبقى موظفوالجوازات على عاداتهم الطيبة فى عدم التدقيق فى أداء واجبهم ، ويجب أن يبقى صديقه أحمد ليؤدى واجباته الأخيرة لكى يعود « عادل سالم » الى حياته الأولى خاصة وقد سقطت العقوبة بمضى المدة .

فليس من المعقول أن يفلت من خطأ حقيقى ليقع أسير خطأ آخر كان هو طريقه الوحيد الى الصواب .

ألقى نظرة أخيرة على المرآة ثم على ساعة يده ، وضع فى حقيبته جواز السفر الذى يحمل اسم « سامى بركات » وفى مكان آخر من الحقيبة وضع بطاقته الشخصية الحقيقية التى تحمل اسم « عادل سالم » ، وفى حقيبة واحدة ، الحقيقة والزيف . الحقيقة لا تساوى شيئا ، بينما ينحنى كل من فى الفندق أمام الاسم المزيف .

وحين مد يده ليدير أكرة الباب لكى يخرج خيل اليه أنها كانت تتحرك وحدها فى يده وللحظة لم يصدق ..

حين كانت الساعة تدق الخامسة أو ربما بعدها بقليل كان صوت يتردد فى ميكرفونات الفندق يرجو السادة النزلاء أن يلزموا أماكنهم فى هدوء ، وان يهيئوا الفرصة لرجال الأمن للقيام بواجبهم حرصا على سلامة النزلاء جميعا ، وأن يسمحوا لهم بتفتيش الحقائب والغرف لدواع أمنية هامة ..

مضت الدقائق بطيئة وشاقة قبل أن يعرف النزلاء جميعا أن شخصية كبيرة تحمل اسما غير اسمها الحقيقى كانت ضمن النزلاء وكانت هى المستهدفة للخطر ٠

وتنفس الكثيرون الصعداء حين ارتفع صوت الميكرفون يطمئن النزلاء على أن لحظات الخطر قد انتهت ، وأن بمقدورهم أن ينصرفوا الآن فى هدوء الى شئونهم العادية مطمئنين الى سلامتهم ٠

ولكن عددا من هؤلاء ، ربما أكثر من هؤلاء الذين نعرفهم كان من العسير عليهم أن يجدوا هذه السلامة التى يتحدث عنها رجال الأمن بصوت مرتفع فى جميع ميكرفونات الفندق ٠

[illegible]

[illegible]

[illegible]

نانى القطة السمراء

لا أحب بعد أن تنتهى أو حتى قبل أن تنتهى من قراءة هذه القصة أن تشغل نفسك أو تشغلنى معك بالسؤال عما اذا كانت أحداث هذه القصة قد وقعت لى فى الحقيقة أم فى الحلم · وأصارحك منذ البداية بأننى لا أجزم حتى لنفسى باجابة على مثل هذا السؤال ، فالحدود الفاصلة بين الحلم والواقع فى حياتى توشك أحيانا أن تختلط ، وأصبحت هذه المسألة لا تزعجنى كثيرا ، ولست أحب منذ البداية أن أطالع فى عينيك هذه النظرة المستريبة والتى تعنى أنك سوف تقرأ ما أكتب بوجس وحذر ، فليس يهمنى فى شىء أن تقرأ هذه القصة بوصفها شىء حدث فى الحقيقة أم فى الحلم ، فقد تكتشف فى النهاية ان مثل هذه الاعتبار لن يؤثر كثيرا على موقفك من هذه القصة ، بل قد تكتشف أن مثل هذه الحدود الفاصلة بين الحلم والحقيقة ليست بهذه الصلابة فى حياتك مثلما هى فى حياتى !!

فجأة أحسست أنه هو ... من يسير بجوارى منـذ لحظات منذ بدأ الطريق يخلو تقريبا من المارة ... منذ بدأ الطريق ينخلع عن المدينة ، ويوغل بين الحقول ... منذ بدأت ظلال الأشجار تمسى أطول من الأشجار ذاتها ، وبالتأكيد كانت شمس الصيف هى التى تنحدر نحو المغيب ، فقد كنت أستقبل بارتياح تلك النسمات الرقيقة الرطبة القادمة عبر الحقول المترامية على مدى البصر قبل أن يفاجئنى ذلك الشعور القوى بأنه هو .. من يسير بجوارى منذ لحظات ولم أجرؤ على أن أرفع وجهى اليه لأتأكد من أنه هو .. سيدى ومولاى الخضر عليه السلام ... من يسير بجوارى منذ لحظات . ! وكيف أعرف أنه هو حتى لو نظرت فى وجهه فلم أكن قد ابصرت وجهه فى حياتى كلها مرة واحدة رغم أن طفولتى كلها كانت ملأى بصورة هذا الوجه الكريم منذ كنت أجلس فى المساجد قبيل صلاة الجمعة أستمع الى ترتيل سورة الكهف منتظرا فى لهفة ذلك الحوار المثير بين سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا الخضر ، وبالأخص عندما كانت الحيرة تبلغ مداها بسيدنا موسى لما يراه شرا أو خطأ فظيعا فى سلوك الخضر عليه السلام فينسى ما تعاهدا عليه من ضرورة الصمت عن السؤال ، فيجيبه الخضر محذرا ومذكرا : « ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا » ؟؟

ولكنى أتذكر فجأة أن صورة سيدنا الخضر فى طفولتى كانت تستمد ملامحها من وجوه الشيوخ الصالحين الذين كانوا يزورون قريتى ليعقدوا بها حلقات للذكر ... وليمنحوا العهود أو يجددوها للمريدين .. ثم بعد أن كبرت نسيت ملامحه القديمة المتجددة ... روحه هى التى بقيت تصب فى روحى .. قدرته على أن يرى ما وراء ظواهر الأحداث والأشياء ظلت تبهرنى ... تمنيت بأن يأتى يوم يمنحنى الله مثل هذه القدرة .. صليت كثيرا رددت الأوراد التى كان يحفظها أبى ويتلوها عقب كل صلاة .. قرأت كثيرا وتأملت

كثيرا ... ولكن احداث الحياة التى كانت تفجعنى ظواهرها دون أن تتكشف لى حكمتها الخفية ظلت تقتلنى قتلا ... أخيرا دعوته ... رجوته ... توسلت اليه أن يلقانى فى الحلم أو فى الحقيقة ولكنه ظل فى مكانه النائى لا يجىء بحيث اراه ولا يبعد حتى أنساه ، احترق بقربه كامل ، وبنأيه كحقيقة ! حتى كان ذلك اليوم الذى أحسست فيه فجأة أنه هو من يسير بجوارى منذ لحظات .. دقات قلبى تصرخ بين ضلوعى بأنه هو ، وأشعر أننى لو فعلتها ونظرت اليه فسوف يختفى فى اللحظة نفسها عن عيونى ومن يدرى فقد اختفى لحظتها من الوجود !

سرت بجواره صامتا مرتبكا من الفرح والخوف يملأنى يقين لا قبل لى بمساءلته بأنه هو ... هل أبدأ بالكلام أم هو الذى سيبدأ ؟ وهل يطول بنا الصمت والمسير وظلال الأشجار تواصل رحلتها لاحتضان المكان كله ؟!

فجأة أحسست بأننى تعب ... جائع وتعب ... وبأننى لم أعد أقوى على المسير ... وبأنه هو ... سيدى ومولاى الخضر عليه السلام ينتحى جانبا من الطريق ، ويشير بيده الى شجرة وارفة الظلال لنستريح فى ظلها ... هل أفعلها الآن وأخطف نظرة الى وجهه الكريم ـ وكأنها حدثت عفوا ـ قلبى يحذرنى من غرورى ولؤمى .. ! انه يفهمنى دون كلمة ، ويفعل ما أنا فى حاجة اليه دون سؤال فلماذا أتورط فيما قد أندم عليه ؟!

خيل الى أنه يبتسم ... ان وجهه الذى لا أراه يبتسم . أنه يقرأ ـ دون شك ـ كل خواطرى .. ! آنذاك فقط لمحته يضع على الأرض مخلاة لا شك انها كانت فوق كتفه ، لمحته يبسطها على الأرض ويخرج منها لفافة فيها خبز وجبن ويدعونى الى الطعام ، صوته يتخللنى بلا صوت ، وما أراه يملأنى يقينا بما لا أراه ... لماذا

يعاودنى الحنين الى رؤية وجهه ؟ هـل يفعل مثل هذا أحـد غيره ؟ مددت يدى الواجفة الى الطعام بعيون ذاهلة منكسرة . كان قد مضى صوب الترعة المجاورة ليملأ منها كوز ماء ... تعمدت ألا أنظر اليه وهو قادم بالماء حتى لا أقع فى المحظور ... تعمدت أن أنظر الى ناحية الحقل القريب لأرى فجأة تلك القطة السمراء تبرز من بين زرعه الكثيف الأخضر ... قطة سمراء لم أر فى حياتى قطة فى مثل جمالها ...اجتذبتها ـ دون شك ـ رائحة الطعام ... مدت رأسها وهى تموء فى صوت ضارع رقيق فظهرت أسفل عنقها تلك البقعة البيضـاء التى ضاعفت من جمالها ، وانعـكس فى عينيها الخضراوين شعاع الشمس الغاربة فبدا فيهما مهرجان من الألوان التى تقترب وتبتعد من اللون الأخضر ... مـدت يديها الأماميتين وقوست من ظهرها لتقفز فى رشاقة فوق القناة التى كانت تفصل بينى وبينها ، وهبت فى اللحظة ذاتها نسمة رقيقة تموج بها شعرها الأسود الطويل الناعم فى موجات متتابعة زاد من تتابعها حركتها الرشقة وهى تقترب منى .. لا يفوق جمـال القطة فى سـكونها الا جمال حركتها ..! جائعـة أنت يا قطتى الجميلة رغم اخضرار الحقول من حولك وامتلاء زروعها بالثمار .. ! جائعة وجميلة ! أدنيت منها قطعة خبز حـين أدنت فمها من يدى ... تركتها تسقط من يدى .. ! اجتذبتها بيدهـا وشممتها قبل أن تأكلها على مهل ... برقت عيناها بوميض الامتنان واقبلت تتمسح بى ، لم تجفل حين تخللت بأصابعى شعرها الناعم الطويل ... ارتعشت أصابعى ... ارتعش جسدى كله ... أنت لا تعرف الحنان الا حين تلمس شعر قطة ناعم فرغت لتوها من الطعام وجاءت تتمسح بك .. ! متى عاد سيدى ومولاى ؟ متى وضع أمامها كوز الماء لتشرب ؟! متى ضمها اليه فى رقة وحنان ؟ متى رفعت رأسها ومدت عنقها وراحت تلعق ثيابه بلسانها ؟ متى أخرج من جيبه فى لمح البصر ذلك الموسى الذى

ومض نصله فى ضوء الشمس الغاربة ؟ متى تردد بصرى فى لحظة خاطفة بين وميض النصل فى يده ووميض الخوف فى عينى تلك القطة السمراء الناعمة ٠٠ ؟ لا أعتقد أنها أدركت ٠٠٠ لا أعتقد أنه كان هناك وقت لتدرك ٠٠٠ لعل وميض الخوف انبعث من مكان فى عقلها قبل الادراك بآلاف السنين ٠٠٠ وقبل أن تدرك ما حدث بل قبل أن أدركه أنا تماما ، كان سيدى ومولاى قد أجرى نصله الحاد اللأمع على عنقها ، كانت قد فقدت الحركة والسكون معا ، ولابد انى فقدت للحظات عقلى وصوتى وكدت أفقد حياتى ٠٠ ! اذ كيف اتسع صدرى لهذه الصرخة المكتومة التى كان يمكن أن تضيق بها الآفاق !!

من غيره يفعل ما فعل ؟ ومن غير موسى يجرؤ على السؤال لكنه ٠٠٠ سيدى ومولاى كان يدرك ما أفكر فيه ! كل ما أنا فيه ! ولم يكن بيننا عهد على ألا أسأل وعلى ألا يجيب !

قام سيدى ومولاى وحفر فى الأرض حفرة وأنا أرتجف وأرى فيها جثة القطة السمراء الجميلة التى لم تعد قطة ولا سمراء ولا جميلة وأنا أرتجف !!

عاد الى جوارى ٠٠٠ أحسست أنه عاد ليجيب على سؤالى الذى لا أنطق به وأنا أرتجف !!

كان صوته يتخللنى ٠٠٠ كأنه قادم من أعماقى ٠٠٠ ولم أجرؤ على أن أرفع وجهى الى وجهه ٠٠٠ يقينى بأنه هو يصبح شيئا أقوى من اليقين ٠٠٠ صوته يأتى عبر نفسى وعبر الآفاق وكأنه يملأ الوجود كله ، وكنت وأنا أنصت اليه لا أزال أرتجف !!

« كانت مثل هذه القطة ٠٠٠ أعتقد يا بنى أن هذه القطة من سلالتها ٠٠٠ أنت لا تستطيع أن تقطع دابر شىء فى هذه الأرض ، لا قطة جميلة ، ولا فكرة جميلة أو قبيحة ٠ القطط والأفكار والناس

يتناسلون جميعا ويصرون على البقاء ، قد تتغير الأشكال وتتحور ... ولكن الجوهر يبقى ... الطيب والخبيث ... وأنت تستطيع لبعض الوقت أن تمنع تناسل الخبيث ـ تقول ولكنها قطة جميلة ـ أعرف يا بنى أن هذا النوع من القطط له سحر لا يقاوم ، أنه أجملها على الاطلاق ومهما يكن لون شعره أو لون عينيه (كنت لا أزال أرتجف وخيل الى وقتها أن لحظة الغروب قد تجمدت فى مكانها) . وحين رأتها « نانى » فى الطريق ، وكانت عائدة من مدرستها ، سحرت بها كما حدث لك منذ لحظات . وضعت حقيبة كتبها على الأرض ووقفت تتأملها فى ذهول ، « نانى » كانت طفلة جميلة ، شعرها طويل ناعم كان أبوها يدللها قائلا :

ـ أنت قطتى الصغيرة !

وفى المدرسة كان رفاقها يقولون لها :

ـ ان لك عينى قطة !!

وفى الحقيقة كانت فيها بعض خصال القطط ، فهى تحب أن يربت أحد على كتفيها أو شعرها ، كما تحب أن تدلل باسم « نانى » ، وحين عادت الى المنزل فى ذلك اليوم تحمل قطة سمراء جميلة بدلا من حقيبة كتبها التى نسيتها فى ذات المكان ، اختلفت الأسرة بشأن ما فعلته « نانى » ، تحفظ الأبوان فى البداية .. غضبت « سحر » الأخت الكبرى وقالت وهى تشير اليها :

ـ كيف نحتفظ فى بيتنا بقطة لها مثل هذه الأنياب والأظافر ؟ كان عصام الأخ الأصغر أكثر جرأة ... أدنى يده من يد القطة فراعه انها تبادر الى اخفاء أظافرها فى يدها . صاح فى فرح :

ـ انها بلا أظافر .

نسيت الأم تحفظها حين رأت القطة تستكين بين ذراعى ابنها وكأنها قد أصبحت أما فجأة ، لمحت فى عينى نانى فرحا عميقا بتأييد أخيها ، وزوال تحفظ أمها · قالت « نانى » تحاول كسب أبيها :

ـ سوف تصبح لك قطتان يا بابا !

قال الأب منتظرا نتيجة التجربة :

ـ لماذا تصرين على حملها ؟

وكأنما كان السؤال للقطة ، قفزت من بين يدى « نانى » وراحت تتجول فى البيت ··· بيتها ·· ! (آنذاك زايلنى الارتجاف قليلا ، وبدأت الشمس تنحدر نحو الغروب) ·

فى تلك اللحظة أدرك الأبوان أن « نانى » قد عادت بدون حقيبتها فأمراها بأن تعود لتبحث عنها حيث نسيتها بينما راح الجميع يبحثون عن القطة التى اختفت عن عيونهم داخل الشقة حتى تعود « نانى » ! » ·

وبدأ سيدى ومولاى وكأنه يلتقط أنفاسه قبل أن يستطرد :

« بعد أيام قليلة كانت « نانى » قد كسبت قضيتها ، « بوسى » هى التى كسبتها لها ·· ! الأولاد هم الذين أطلقوا على القطة هذا الاسم ، تسللت « بوسى » الى قلب الأسرة بالبساطة والرقة نفسيهما التى تتسلل بها الى أى مكان فى الشقة ، فى أعماق « بوسى » روح الرحالة العظام ، لها طريقتها فى اكتشاف المكان ، وفى تقدير المسافات ، يقودها أنف حساس مدرب ويقف بها على حدود المخاطر حذر هائل لا يعادله سوى فضولها ، وسوى ثقتها التى لا تحد فى تقبل الآخرين لها ·· ! حين تريد أن تنام فى هدوء تختفى

فجأة كأنها روح ... ويشقى الأولاد فى البحث عنها ... ولكنها فجأة تعود اليهم من مكمنها ... يجدونها تحت أقدامهم أو فوق رؤوسهم وهم نائمون تهر وتمد يدها لتجتذب أصابع القدم أو اصابع اليد أو شعر الرأس ... ودون أن يفتح الأولاد عيونهم يمدون أيديهم ويسحبونها لتنام بينهم فى سكون وسلام ، وتنام أصابعهم فى شعرها الناعم الطويل !!

وأحيانا تتكور على المنضدة كتمثال أبنوس لقطة ويغير التمثال أماكنه ثم تدب الحياة فى التمثال ، وفى الحقيقة لم يكن تمثالا واحدا ولم تكن بوسى قطة واحدة .. ! كانت تأخذ عشرات الأشكال والأوضاع المبهرة فى جمالها الساكن . أما حين تلعب فقد كانت توقظ روح اللعب فى الكبار قبل الصغار ولا يخجل الأبوان من اللعب معها أمام الأولاد !

قال الأب يوما للأم :

ـ لأول مرة يتفق أولادنا على شىء ... ويدوم الاتفاق .

قالت الأم مشاكسة :

ـ ليس الأولاد وحدهم !

تمتم الأب وعيناه ترمقان « بوسى » وهى تعبر الصالة .

ـ كل هذا تفعله « بوسى » .

قالت الأم :

ـ أحيانا أفكر فى حقيقة ما فعلته بوسى بحياتنا ، كيف أمكنها أن ...

ويقاطعها الأب :

ـ يكفيها فخرا أنها جعلتك تفكرين !

ـ يا رجل ... تنتهز كل فرصة لتسخر منى ... ثم أردفت : سامحك الله .

ـ وجعلتك أيضا تعرفين التسامح !

ـ تصر على استفزازى ، ولكنى أغفر لك من أجلها !

ويكتسب صوت الأب نبرة جادة وهو يقول :

ـ فى الحقيقة أفكر منذ أيام فيما تفكرين فيه !

ـ فيم تفكر !

ـ فيما فعلته بنا « بوسى » ، ثم أردف بذات النبرة الجادة تختلف كلنا طوال النهار فى أشياء كثيرة ، ولكننا جميعا نحبها ... كل واحد فى هذا البيت يحبها بطريقته ... يتشاجر الأولاد حول ما يجب أن يقوم به كل واحد منهم من أعمال فى البيت ، ولكنهم لا يختلفون حين يتصل الأمر باطعام « بوسى » ، أو باحضار التراب الذى تحفر فيه لتقضى حاجتها ، ولا يرون فى الأشياء التى تتلفها أحيانا سوى مزحة يتندرون بها ، وحتى لو ضاقوا بهذا لأن بعض هذه الأشياء تخصهم فانهم يكتفون بتوجيه بعض النصائح « لبوسى » ، وكأنها تفهم لغتهم ..

ضحكت الزوجة وقالت :

ـ يا رجل ... ضبطك بالأمس تتحدث اليها فى المطبخ حديثا طويلا !

ـ وأنت تفعلين ذلك أمام الجميع ... تدللينها كأنها طفل .

ـ ماذا أفعل ، كنت أريد أن أنجب طفلا ... ولكنك كدت تموت من مجرد التفكير فى الأمر ؟!

ـ على الأقل بوسى لن تحتاج الى أن ندخلها مدرسه ٠٠ ثم أردف بذات النبرة الجادة المتأنية :

ـ ما أقل ما تأخذ وما أكثر ما تعطى !

قالت الأم بلهجة من يعرف ولكنه يسأل ليتأكد من أن السائل والمسئول يعرفان الشيء نفسه :

ـ ماذا تعطى ؟

قال الأب :

ـ تفجر فينا جميعا طاقة بلا حدود من الرقة والحنان !

ـ هل تصدق ؟ أحيانا أشعر اننى أحبها مثل « نانى » تماما !

ـ هى عندك امتداد « لنانى » ، وعند « نانى » امتداد لذاتها ، تعطى كل واحد فينا ما هو فى حاجة اليه !

ـ كنا نحيا بدونها ٠٠٠ هل نسميت ؟

ـ وبدون هذا الحنان ٠٠٠ هل تنكرين ؟

ـ كنا نحنو على أولادنا !

ـ ولكننا جميعا ، الكبار والصغار ـ بعد بوسى ـ نعرف هذا الحنان الخالص المنزه عن الغرض الذى يتجاوزنا جميعا ويتجه الى بوسى ، ويوشك فى نهاية الأمر أن ينفصل عنها ويصبح موجودا لذاته ، رغم انها خالقته ٠

ـ احب « بوسى » بدون فلسفة ما أنت فتفسد كل شيء حتى الحب بفلسفتك !

ـ فى هذه المرة لا أريد أن أفسد شيئا ٠٠ أريد أن أفهم وأعتقد انك كأمرأة يمكن أن تساعدينى على الفهم ٠٠٠ بمشاعرك !

ـ هذه أول مرة تعترف لى فيها بميزة عليك !

ـ هذه أيضا من حسنات بوسى !

ـ سوف تجعلنى اغار منها !

وبصمت الأب متأملا ثم يصرخ :

ـ ماذا قلت ؟ هل تعنين حقا ما تقولين ؟ أجيبى بصدق هل تغارين منها ؟

قالت الزوجة وقد روعها صراخ زوجها دون أن تخفى عنها نبرة الجد فى سؤاله ٠٠

قالت بعد لحظة تفكير جادة :

ـ لا أغار منها !

قال الزوج فى فرح :

ـ زوجتى العزيزة ٠٠٠ لقد أجبت على سؤالى !

ـ أى سؤال ؟

ـ سر بوسى !

ـ لست أفهم !

ـ لماذا لا تغارين منها ؟ لماذا لا يغار أحد الأولاد من حب الآخرين لها أو من حبها للآخرين ؟!

ثم أجاب دون أن ينتظر منها اجابة على سؤاله :

ـ لأن « بوسى » فى تقبلها لحب الجميع ... فى استجابتها لحنانهم لا تفرق بينهم ... لأنها حين تقبع هناك فى مكانها أو تسلل بين الأيدى والأرجل أو تلعقها وتتمسح بها ، حين تموء أو تنظر فى امتنان تبعث مشاعر الحنان فى قلب الجميع وهى فى صدفتها ، فى مدارها كما ترسل الشمس أشعتها لكل المخلوقات !

انها تتقبل حب الجميع بطريقة واحدة ، وتبعث فى قلوبهم شعورها بالتقبل بالطريقة نفسها .. لم تخيب مرة واحدة رجاء واحد .. لون غريب من عدالة الحنان أو حنان العدالة .

ـ تعود الى التفلسف ... من حسن حظ بوسى انها لاتسمعك!

ـ يكفيها حبى ، ويكفينى حبها !

ـ ليتك تجعلنى أشعر بحبك كما تشعر به بوسى بدون كلام !

ـ أحيانا يحيرنى صمتها العميق ! كيف تصمت هذه المخلوقات المليئة بالحنان والحب والرقة ؟!

ـ زوجى العزيز ... ليتك تقلد بوسى وتصمت قليلا !

ويصمت الزوج ولكن حديثه مع نفسه عن بوسى لا ينتهى . ويصمت الزوج ولكن حوار الأولاد مع بوسى وعنها لا ينتهى . وتصمت بوسى ولكن الحوار الذى بدأته مع الجميع يتغلغل فى حياة الأسرة ويغير فيها كل شىء خاصة حين تتخذ من اللعب اسلوبا لهذا الحوار ... كانت تغضب وترضى وتخاصم وتصالح وتعبر عن هذا كله بطريقتها فى اللعب ، فهى تخمش بلا أظافر وتعض بلا أنياب حين ترضى ولكنها تظهر أظافرها وأنيابها حين تغضب ، ورغم كل شىء ظلت « بوسى » محبوبة ومحبة عارفة بما يرضيهم وعارفين بما يرضيها ، حتى جاء يوم راحت تموء فيه مواء متصلا ... وعبثا

حاولوا أن يعرفوا ما الذى تريده بوسى ؟ أوشك الحوار أن ينقطع ! غيروا لها نوع الطعام ... قلبوا فيها ... أوشكوا أن يتبادلوا الاتهام بأن أحدهم أساء اليها ... أو ترك أمامها طعاما غير صالح .. ! قال الأب :

ـ نعرضها على الطبيب !

وتطوعت « نانى » بحملها الى العيادة البيطرية . قال الطبيب بعد السؤال والفحص وهو يكتم ضحكته :

ـ لا شىء بها ... تريد أن تتزوج !

كتمت نانى دهشتها ، قال الأب ، محاولا أن يدارى شعوره بالحرج أمام طفلته .

ـ كيف نفعل لها ذلك ؟

قال الطبيب :

ـ دعوها تخرج من الشقة .. وسوف تدبر هى أمورها !

قالت نانى وهى تغالب ترددها :

ـ هل ستعود الينا ؟ قال الطبيب :

ـ لا تخافى .. تعرف القطط دائما طريق العودة !

وعادت « نانى » لتحكى القصة الغريبة لاخوتها وكأنها تحكى أخطر الأسرار ، وبدأ الأولاد جميعا يرقبون نتائج التجربة الجديدة بفضول وشوق وقلق وخوف وودعوها أمام باب الشقة فى شبه مظاهرة ، فوجئوا بأن مظاهرة أخرى من القطط كانت فى استقبالها ! كيف غاب عنهم انها كانت تتبادل معها المواء طول الوقت ؟ ألمحوا وهم يتكتمون الضحك والخوف معا الى سوء أخلاقها ! هل ستعود

حقا أم أن هذه القطط الضالة سوف تغويها وتغريها بحياة التشرد
كانت « نانى » أكثر الأولاد قلقا وأسئلة عن مصير بوسى فى أيا
غيابها ٠ ! رأتها مرتين فى الحلم والكلاب تطاردها ، وقامت من نومها
فزعة باكية ، فزعت الأم لما أصاب « نانى » وتمنت ألا ترجع « بوسى
٠٠٠ حتى لا يزداد تعلق البنت بها ٠٠ ومهما يكن قلقها الآن سوف
ينتهى فى النهاية ، ولكن الجميع فوجئوا ذات مساء «ببوسى» تموء أمام
باب الشقة وتخمشه بأظافرها ، استقبلها الأولاد بمظاهرة تفوق
مظاهرة الوداع بكثير ، التقطتها « نانى » فى حضنها ، وأمطروها
بالأسئلة عما جرى لها وعما فعلته فى غيبتها ، كانت بادية النحول
والذبول ، وجرت فى أنحاء الشقة تتعرف على كل ركن فيها وعادت
تستكين بين الأيدى المتلهفة ، وتصيب فى تردد من الطعام الذى
أحضروه لها ، وتجيب على أسئلتهم بمواء ضعيف حينا ، ونظرات
صامتة تنطوى على لمحات غامضة من الخوف والقلق !

وعجز الأبوان عن اخفاء قلقهما لما لاحظاه من تعلق « نانى »
الشديد بقطتها ولكنهما نسيا القلق مع الأيام ٠٠ ! ففى سهولة
شديدة عاد كل شىء الى ما كان عليه ، ونسيت « بوسى » ذاتها
مغامرتها ، وعادت ذات القطة الجميلة الساحرة التى تثير الحنان
والرقة ، لم يتغير شىء فيها سوى أن بطنها بدأ يكبر ، وحين عاد
بطنها الى حجمه الطبيعى كان هناك ثلاث قطط صغيرة تلوذ بأمها فى
صندوق كبير من الورق المقوى أعده الأولاد للحدث السعيد !!

(كان الضوء الرقيق الذى يبقى بعد الغروب يزداد رقة ،
وصوت سيدى ومولاى يزداد ألفة ، وومض فى رأسى خاطر كالبرق
أنه حين يحل الظلام فسوف يصبح سيدى ومولاى مجرد صوت ،
ورغم اقتراب الظلام فلم يكن بى ذرة واحدة من الخوف ، فضلا عن
الارتجاف ، وبقيت أقاوم رغبتى فى النظر الى وجهه الكريم) ٠

« بعد أيام قليلة كانت القطط الثلاث الصغيرة تحاول أن تقف على حافة الصندوق الورقى فى محاولة جريئة لكى تتجاوز حدود عالمها ... أصبح لكل طفل فى البيت قطة خاصة به يشارك أمها فى العناية بها ، وأصبح لكل قطة اسم ولكن علاقة من نوع خاص ظلت تربط « نانى » بـ « بوسى » فهى التى جاءت بها ، وهى التى تحمل فى قلبها فيضا من الحنان يكفى الأم والابنة بل والأبناء جميعا ، وهى الوحيدة التى سألت أول سؤالين عن جنس القطط الصغيرة هل هى ذكور أم اناث ؟ وما الذى ستفعله بعد أن تكبر ؟ هل ستخرج بدورها لتتزوج وتنجب قططا أخرى صغيرة ؟ وكيف يمكن أن تتسع شقتهم الصغيرة لكل هذه القطط ؟ و .. !

كانت « نانى » بروحها الرقيق المشرق هى التى استشرفت المشكلة وقبل أن تقع بوقت طويل... استشرفتها فى أسئلة عابرة تظهر فى أحاديثها وتختفى .. الأبوان وحدهما هما اللذان كانا يلمحان فى الأسئلة وفى غيرها الحجم الحقيقى الغائص للمشكلة ... ولم تكن المشكلة فى تقديرهما هى فى اطعام هذه القطط بل فى الطريقة التى تتخلص بها هذه القطط من طعامها داخل شقة فى الطابق الثالث وفى أشياء أخرى كثيرة ، وأصبحت أحاديثهما عن القطط تخلو من طابعها الفلسفى أو الساخر أو المرح وحتى الردىء فالقطط تواصل نموها ... وتعلق الأولاد بها يواصل نموه ... وسوف يأتى يوم لا محالة تتكاثر فيه الى الحد الذى يحتم ضرورة التخلص منها أو من بعضها فكيف يواجه الأولاد هذه المشكلة ؟!

وبدأ الحديث عن رغبة بعض الأصدقاء فى استهداء بعض القطط يتسرب الى أحاديث الأبوين بشكل عرضى بغية اكتشاف وقع المسألة على الأولاد !

وكما حدث فى أول مرة حين جاءت « بوسى » اختلفت ردود الأولاد . قالت سحر :

ـ لن أعطى قطتى لأحد ..

ثم أضافت حين لمحت ضيق أبويها :

ـ سوف أعطى من أولادها اذا هى أنجبت أولادا .

رفضت « نانى » مناقشة الموضوع ، ولاذت بالصمت ..

قال عصام الصغير :

ـ ان قطتى ولد فلماذا أتركه ؟

وأزاح الأبوان لبعض الوقت شعورهما بالمشكلة ، قال الأب فى محاولة يائسة لحل المشكلة عن طريق التفلسف .

ـ سوف يؤدى تكاثر القطط الى تفتيت مشاعر الأولاد حولها وسوف تحل المشكلة نفسها بنفسها !

ولكن المشكلة التى تجاهلاها بالصمت بدأت تعود فى أحاديث الأولاد أنفسهم ... كثرت أحاديثهم عن القطط الضالة فى الطرقات ... وعلى سلم العمارة التى يسكنون بها ... كيف تعيش وتأكل وتشرب ؟ من يلاعبها ؟ ومن يحبها ومن تحبه ؟ وكانت « نانى » هى التى تبدأ الأسئلة دائما ، والتقط أبوها طرف الخيط معتقدا انه قد يجد بداية لحل المشكلة ... أخذ يحدث « نانى » عن تأثير العادة على الانسان وعلى الحيوان ... أخذ يشرح لها كيف ان القطط الضالة تألف حياتها ودائما تجد ما تأكله ، وترضى بالقليل ، وليست لديها مشكلة كما قد تتصور !

وترد « نانى » :

ـ ولكنها سوف تكون مشكلة يا بابا لو تعرضت قططنا للضياع !

ـ وما الذى يجعلها تضيع ؟

ـ أنت يا بابا ... تريد أن تعطيها للناس !

ـ لأصدقائنا ... لن نتركها للضياع !

ـ هم قد يتركونها يا بابا !

ـ لا تخافى يا عزيزتى ... لن نعطيها لأحد !

ويشرق وجه « نانى » المستدير الناعم بفرحة مستديرة يغوص لها قلب الأب ... ماذا سيحدث لابنته لو مرضت أو ماتت أو عجزت قطتها عن العودة فى موسم الزواج ؟ وبـدأت أحاديث الأبوين عن المشكلة تأخذ طابعا عصبيا ، قالت الأم :

ـ فى موسم الزواج ، حـين ترغب القطط فى الخـروج ، لا نتركها بحيث تعود بعـد أيام ... بل نجعلها لمن يريدهـا من أصدقائنا .

ويصرخ الأب :

ـ صدقت هذه الحكاية .. أصبحوا بفضل ثرثرتك عن المشكلة لا يريدون أن تتكرر فى بيوتهم !

ـ نتركها فى مكان لا تستطيع العودة منه !

ـ هل جننت ؟ تلك هى المشكلة وليس الحل !

وتصيح الزوجة :

ـ مشكلة من ؟ لماذا لا تقول انك أنت الذى لا تريد أن تتخلى عنها ؟

ويرد محتدا :

ـ وهل تريدين أنت أن تتركيها بهذه الطريقة ؟

وتصمت الزوجة ، ويدرك الأبوان على نحو ما انها لم تعد مشكلة « نانى » وحدها · وتحاول الزوجة أن تخفف من حدة الموقف فتحيل الموضوع الى نكتة بدت بلا طعم :

ـ سوف تحل المشكلة لو أصبح لدينا « فيلا » واسعة تتسع حديقتها لعشرات القطط الجميلة ! ·

(كان الظلام قد أصبح شاملا وكاملا ، وأصبح سيدى ومولاى مجرد صوت يتخللنى من كل مكان ، ولكن احساسى بوجوده المادى كان لايزال موجودا ، ورغم اننى لو تلفت حولى فلن أصبح قادرا على رؤية وجهه الكريم كما كنت أحب فاننى لم أجرؤ على التلفت) ·

« ولكن المشكلة يا بنى ··· المشكلة التى كانوا يحاورونها ويدورون حولها طول الوقت بدأت تدور حولهم وتطوقهم ، وكالعادة بدأت مع « نانى » أيضا ·· !

بدأت ذات مساء فى ليلة شتوية باردة ، لم تكن « نانى » قد آوت بعد الى فراشها حين تناهى الى سمعها مواء ضعيف لقطة أمام باب الشقة ··· ظنتها قطتها وبدلا من أن تبدأ بالبحث عن قطتها بدأت بفتح باب الشقة ··· لتجد أمامها قطة صغيرة ضالة لا يزيد عمرها عن أسابيع قليلة ترتجف من البرد ، ولم تكد « نانى » تفتح الباب حتى تسربت القطة الصغيرة لائذة بالشقة حملتها نانى فى حضنها ودخلت بها على الفور ووضعت أمامها طبقا صغيرا فيه بعض اللبن راحت القطة تلعقه فى لهفة ، كانت أمها قد أحست بالباب يفتح ويغلق ، خرجت تستطلع الأمر ، حين رأت المشهد المثير لنا فى والقطة الصغيرة الضالة لم تملك نفسها من الصراخ :

ـ هذا ما كان يقنصنا ··· ألا يكفينا ما لدينا ؟ هل جننت ؟

وارتجفت « نانى » وكفت القطة الصغيرة عن الطعام ، وجرت ناحية الباب ... وجاء الأب ليجد « نانى » تقف فى انكسار وأمها تفتح الباب وتغلقه خلف القطة الصغيرة ! وأقبل بقية الأولاد على صياح الأم ليلمحوا المشهد الأخير المثير !

حدث هذا كله فى لحظات خاطفة عجزت الأم فيها عن أن تمسك بنفسها ، وعجز الأب عن التصرف الملائم وصمت الأولاد جميعا فى ذعر عدا « نانى » التى انفجرت فى بكاء عنيف .. !

كان ذلك الحادث الصغير الذى لم يستغرق سوى لحظات عجز فيها الأبوان عن الرؤية الصحيحة والسلوك الصحيح هو بداية النهاية !

« حين تضع بذرة صغيرة يابنى فى التراب وترويها بالماء فانها تنمو ، وآنذاك يواصل النمو دورته ، قال الطبيب محاولا شرح الموقف على طريقته ، ومحاولا حل المشكلة على طريقته أيضا وهو يحدج الأبوين بنظرة تهدىء وتعاتب :

ـ مسألة عزوف « نانى » عن الطعام والكلام والاستذكار واللعب وحتى عن اللعب مع قطتها لا تعنى تغيرا فى اتجاهها ناحية القطط ، انها ببساطة تعاقب أمها على موقفها ..

ثم أكمل وهو يواصل مخاطبة الأب :

ـ وتعاقبك على سلبيتك من هذا الموقف ، الأبرياء فى نظرها هم اخوتها ، وعن طريق الأخت الكبرى يمكن التسلل الى عقل « نانى » .. من المفروض أن نتصرف جميعا بعفوية وببساطة ، من الخطأ أن نتراجع بمحاولة اعادة القطة الصغيرة الضالة وخطأ أشد أى تصلب فى مسألة « بوسى » وأولادها .. يبقى كل شىء كما هو ، وقد يكون من المفيد أن تأخذ « نانى » وأختها الكبرى في رحلة

ترفيهية الى مدينة جديدة ، تألف فيها البعد عن قطتها لبعض الوقت على أن تبقى القطة فى انتظارها ، ثم أكمل وعيناه تسقطان على وجه الأم :

ـ وقد يكون من المفيد يا سيدتى أن تعرفى أنك قد تؤذين ابنتك بسبب من حبك الشديد لها ، وان تعرفى أيضا أنك بدأت تشعرين بنوع من الغيرة من القطة ومن ابنتك أيضا فأنت تحبيهما معا بدرجة شديدة ، وأحيانا لا تفرقين بينهما !!

ثم تابع سيدى ومولاى حديثه الذى بدأ يقترب درجة من الهمس والنجوى :

حين تضع بذرة فى الأرض فلا بد أن يواصل النمو دورته . فلقد انبثق عن البذرة ساق وكان لابد أن تتفرع عنه الفروع والأوراق ، ففى وقت واحد وفى مكانين مختلفين تداعت الأحداث .. ! فى المدينة التى اصطحب الأب اليها ابنتيه فى رحلة للترفيه عن « نانى » راحت « سحر » الأخت الكبرى تحاول تنفيذ وصية أبيها على طريقتها قالت لنانى وهما يعبران طريقا جانبيا تكدس على رصيفه عدد من الصبية المتشردين وضع كل منهم رأسه حيث يضع الآخر قدميه فى محاولة لالتماس الدفء الذى لا يوفره سقف أو ثوب ... كانوا رغم كل شىء غارقين فى النوم ... بعضهم فمه مفتوح ... وكلهم ثيابه ممزقة !

ـ انظرى ... ماذا تكون مشكلة أية قطة .. ؟

ولأول مرة نطقت « نانى » وهى تبصر مثل هذا العدد من المشردين فى مكان واحد :

ـ هل هناك كثيرون مثل هؤلاء ؟

قالت « سحر » مهونة :

ـ طبعا فى كل البلاد ... وفى كل الدنيا !

ـ لا أصدق ! قالتها وسكتت بينما أردفت « سحر » :

ـ اذا لم تصدقى ... اسأل بابا ؟

وحين سألت « نانى » أباها بوغت بالسؤال ، رأى فى عينيها لأول مرة الحجم الحقيقى لمشكلة ربما رآها ذات يوم وهو فى مثل سنها ثم لا يدرى كيف ظلت تصغر وتصغر حتى أصبح يمر بها كل يوم فى الطرقات دون أن يراها .. !

لم يدر بماذا يجيب ؟ لقد عاقبته على سلبيته فى موقفه من القطة الضالة الصغيرة ... ترى كيف يكون العقاب الآن ؟ وعلى من ستوقعه عليه أم على نفسها ؟ هل يقول لها الحقيقة لتهون مشكلة بوسى وأولادها .. ويخلق مشكلة أفظع أم يكذب وتبقى المشكلة ، وتذكر أنه قرأ مرة هذه الحكمة « ان غرق ألف شخص فى الصين لا يؤلمنا كما تؤلمنا سنة مكسورة فى فمنا » . ولكنه لسبب لا يدريه لم يقتنع بهذه الحكمة ووجد نفسه يقول لها « لنانى » بعد لحظات صمت بائسة :

ـ نعم يا ابنتى يوجد كثيرون من هؤلاء .. فى بلاد كثيرة !

ولم ترد نانى ... لاذت هذه المرة بصمت أكثر عمقا وبقيت فى عينيها نظرات لم يقو على مواجهتها !

حدث هذا يا بنى فى المدينة التى سافروا اليها التماسا للعلاج !

أما فى البيت الذى حلت به اللعنة منذ حلت تلك القطة السمراء الجميلة فقد كانت البذرة تواصل نموها ... كانت

« بوسى » قد افتقدت « نانى » منذ سفرهـا كما افتقدتها قطتهـا الصغيرة « مشمشة » ولكن « بوسى » التى سبقت لها مغامرة الخروج من البيت هى وحدها التى تسللت للبحث عن « نانى » ولم ترجع حتى ذلك الحين !!

وأسقط فى يد الأم . ماذا تقول « لنانى » حين تعود لتسأل عن قطتها فلا تجدها ؟ راحت عبثا تبحث عن بوسى وتحكى القصـة لمن تسألهم عنهـا من الجيران ... كانت كل يوم تخـرج وتبحث وتحكى ... وانتقلت القصة من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع ، كانت الأم فى لهفتها وجزعها تسابق الزمن تريد أن تعود « بوسى » قبل أن تعود « نانى » من سفرها !

وحين عادت نانى مع أبيها كانت قد سافرت الى مكان بعيد صامت ... الى الحد الذى لم تفطن فيه لغيبة « بوسى » . هل أنت مصر يا بنى على أن تعرف نهاية القصة ؟

(كانت تلك أول مرة يوجـه الى فيها سيدى ومولاى سؤالا مباشرا ، وكأنه كان يأذن لى بالنظر الى وجهه الكريم لكنى كنت أدرك على نحو ما ان الوقت قد فات ، واننى حتى لو نظرت اليه فلن أنعم برؤية حقيقة وجهه) .

تمتمت بصوت خفيض : نعم !

« قلل الطبيب : ابحثوا عن القطة السمراء فقد تعيـد اليها الذاكرة .. !

كانت « نانى » قد غابت طويلا عن مدرستها ، وكانت قصتها الحزينة على لسان كل تلميـذة .. وكانت صفات القطـة السمراء الجميلة التى تستكن فى أسفل عنقها نقطة بيضاء تنتقل بين الشفاه ،

وخرج أطفال المدرسة ثم أطفال المدارس ثم أطفال المدينة وشبابها يبحثون فى الشوارع عن القطة السمراء الجميلة الضالـة ، دون جدوى · هل أنت مصر يابنى على أن تعرف النهاية كاملة ؟

(آنذاك عدت ارتجف ··· واكتسب صوت سيدى ومولاى نبرة جديدة وغريبة ، ولم أقو على الرد ··· ولأول مرة يداخلنى الشك فى أن يكون من أستمع اليه طول الوقت هو سيدى ومولاى الخضر عليه السلام · كان الوقت للتأكد من أى شىء قد مضى) ·

وعاد الصوت الغريب النبرة يتدفق مع الظلام :

« لا احب أن أحكى القصة الكاملة لشىء ، لأنه لا وجود لمثل هذه القصة ··· فى الواقع ··· يمكنك أن تتخيل موقف الآباء فى المدينة ··· يمكنك أن تتخيل المغزى الأخلاقى لقرار حاكم المدينة آنذاك بقتل كل القطط السمراء الجميلة ··· يمكنك أن تتخيل « نانى » وقد أصبحت قطة بيضاء جميلة ضالة فى الطرقات ·· !

يمكنك لو أردت أن تفهم معنى ما فعلت حين قتلت هذه القطة السمراء الجميلة التى كانت تفتنك وتثير مشاعر الرقة والحنان ·· !

فحين تبدأ البذرة فى النمو فلابد أن تكتمل الدورة اللعينة · ولم أفعل شيئا يا بنى سوى اننى اقتلعت هذه البذرة ، بذرة الحنان والرقة ·· التى تبدأ معها المأساة وبها (لابد اننى فقدت فى هذه اللحظة صوتى وعقلى وكدت أفقد حياتى اذ كيف اتسع صدرى لهذه الصرخة التى كان يمكن أن تضيق بها الآفاق) ··

ترى ألا تزال تسأل ان كان ما رأيته قد حدث فى الحلم أم فى الحقيقة ؟

ترى ألا تزال تســـأل ان كان من قابلته هو سيدى ومولاى الخضر عليه السلام ؟

أم ان ما يشغلك الآن هو سؤال أهم وأعظم متى قرأت قصة كهذه ؟ أو متى كتبتها أو فكرت فى كتابتها .. ؟ أو ما هى آخر مرة رأيت فيها قطتك السمراء قبل أن تضل هى أو تضل أنت ؟!

العصـــافير

كيف تبصر عصفورا عن قريب ؟ ربما لم تفكر يوما فى سؤال كهذا ، ولا أذكر اننى فى طفولتى كلها واجهت مثل هذا السؤال ، كانت القرية التى نشأت فيها تحيط بها الحقول من جميع الجهات ، كما كانت تمتلىء بالأجران ، التى تمتلىء بدورها فى مواسم الحصاد بالمحاصيل ، وهنا وهناك كانت تطير أسراب العصافير ، تملأ السماء وفروع الأشجار ، وأسطح المنازل ، كان منظرها مألوفا وطبيعيا الى الحد الذى لا يلفت النظر !

ودائما كانت تطير فى جماعات الى الحد الذى لم أفـكر فيه انه يوجد هناك عصفور واحد منفرد أتمنى رؤيته عن قرب !!

ربما لهذا أحسست بالمفاجأة والدهشة حين طلب منى طفلى الذى لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره أن يبصر عصفورا عن قرب !!

قلت فى نفسى : لعله جوع أطفال المدينة لرؤية الطبيعة ! ولكن طفلى الذى أدهشه صمتى ، بقدر ما أدهشنى مطلبه عاد طلبه فى صيغة سؤال وهو يرفع الى نصف وجهه مغمضا احدى عينيه :

لماذا تهرب العصافير يا أبى حين أقترب منها ؟؟

ـ لأنها تخاف !

ولماذا تخاف يا أبى ؟؟

ـ لو بقيت فى مكانها فسوف تمسك بها ... وهى لا تريد ذلك ... ثم أضفت بعد أن تلكأ السؤال التالى على شفتى طفلى :

ـ لانها تريد أن تبقى حرة !

ولكنى لا أريد الامساك بها يا أبى ... أريد أن أراهـا عن قرب .. فهى جميلة جدا .. !

ـ هى لا تعرف انك لا تريد الامساك بها .. ثم قلت محاولا أشاكسه : مستغلا صمته الطارىء :

ـ وربما لو وقفت لفكرت فى لمس ريشها الناعم ، والامساك بها !

ولكنى لا أريد الامساك بها ... أريد أن أراها عن قرب . قالها بتأكيد غاضب ، وهو يهم بالانصراف يائسا من تحقيق رغبته !!

ولكن رغبة طفلى أصبحت على نحو ما رغبتى !

تذكرت كل ما قرأته في كتب التربية عن جدوى أن يقوم الأطفال بتربية الطيور والحيوانات والزهور وملاحظة نموها ... واعتقدت اننى سوف أحقق رغبة طفلى ورغبتى ، ورغبة علماء التربية ، حين أشترى له قفصا به زوجان من طيور الزينة الملونة ليراهما عن قرب .

حين أحضرت القفص فى اليوم التالى كاد طفـلى أن يطير من الفرح ... لم يتخيل أن يتحقق أمله بهذه الصورة الرائعة ، وبهذه السرعة ، وامتلأت الشقة وخاصـة فى لحظات الشروق والغروب

بزقزقة العصفورين ، وبفرحة ابنى · وبعشرات الحكايات التى يرويها كل يوم عن ألعابهما فى القفص ، والطريقة التى بها يأكلان ، ويشربان ، ويقفزان ويتناغيان ، ويتشاجران ··· !! كان هو الذى يغير لهما الماء والطعام فى العلبة المعدنية الخاصة بذلك فى القفص ، محاذرا أن يهرب العصفوران أثناء فتح باب القفص واغلاقه !

وكان هو الذى يغير مكان القفص فى الشرفة كلما تغيرت حركة أشعة الشمس أثناء النهار وكان هو الذى طلب مجموعة من أقلام الرسم الملونة ليرسم صورا للعصفورين تنقل الى الورق حركتهما والألوان الزاهية البديعة فى أجنحة العصفورين !!

ذات مساء عدت الى الشقة لأجد فى عينى طفلى نظرة واجمة وساهمة ، سألته :

ماذا يحزنك ؟

العصافير يا أبى !

ماذا حدث لها ؟

ـ لا تريد أن تأكل ··· ولا تريد أن تلعب !

لماذا ؟

ـ لا أعرف !

كنت قد اشتريت كتابا عن تربية هذا النوع من الطيور وبملاحظة العصفورين فى اليوم التالى ، أدركت انهما قد أصيبا بمرض قد يؤدى بهما الى الوفاة · وخشيت من تأثير صدمة كهذه على نفسية طفلى · لم أرد أن أدخل فى تجربة علاج قد لا يجدى وقد يلحق بهما الموت قبل الشفاء · فكرت أن الوقت المناسب قد حان لأعلم طفلى درسا · وأبعد عنه شبح التجربة القاسية !

قلت له :

انها تريد أن تنطلق الى الفضاء ... انها تكره القفص وتحب الحرية ...

ـ ولكنها لم تكن تريد ذلك قبل الآن يا أبى ... كانت تأكل وتلعب !

كانت تحتمل وتنتظر ... ولكن يبدو انها لم تعد قادرة على الاحتمال والانتظار !

ـ وكيف تحتمل الجوع يا أبى ؟

هذا النوع من العصافير يحتمل الجوع ، ولا يحتمل القفص .

ـ ولماذا أحضرت لى هذا النوع ؟

قلت متراجعا أمام اصرار طفلى :

كل العصافير تكره الأقفاص ... لكن بعضها يحتمل أكثر من الآخر ... لكن فى النهاية ...

ـ هل ستموت يا أبى ما لم نطلقها .. ؟

نعم ... ثم أضفت محاولا أن دفع بالموقف الى نهايته .

ـ ما رأيك لو أطلقناها الى الفضاء ؟؟

صمت الصبى ، قطب حاجبيه وهو ينظر فى حنين الى القفص وكأنه يبحث عن مخرج ، ثم قال بتصميم :

لا يا أبى ... ولكنى أريد أن أراها عن قرب وهى غير جائعة ، وغير خائفة !

أربكنى اصرار الصبى · وأذهلنى نطقه لهذه العبارة ··

« غير جائعة وغير خائفة ·· »

قلت مستسلما :

ـ لا أدرى يا عزيزى كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟!

أنه أمر من الصعب جدا حدوثه كما ترى !

مرت لحظات صمت مفعمة بالحيرة ، لم أشأ أن أتدخل فيها بكلمة واحدة ، ربمـا لأننى لا أجد هذه الكلمة وربما لأننى تركت لطفلى ـ لأول مرة فى حياته ـ أن يتخذ بنفسه القرار الذى كان لابد أن يتخذه حيـال عجزى عن تحقيق أمنيته فى رؤية عصافير غير جائعة وغير خائفة عن قرب !

وفجأة مد يدا مترددة ·· وفتح باب القفص ·· وللحظات بدأ العصفوران وكأنما يترددان بدورهمـا فى الخروج من القفص ·· وتردد الفرح والخوف والوجوم على وجه الصبى حين بدأ أول عصفور يقف على البـاب المفتوح وينتظر أو يفكر قبل أن يتخـذ قراره هو الآخر ! حين طار أول عصفور سقط على حافة الشرفة وبذل مجهودا ليسترد توازنه قبـل أن يلحق العصفور الآخر ويسترد توازنـه بجواره ··· ومرت لحظات لم يبرح فيها العصفوران مكانهمـا من حافة الشرفة ··· لحظات خيل فيها للصبى انهما سيبقيان هكذا دائما ليتحقق له الأمل الصعب العسير ، عصفوران بلا خوف وبلا جوع يراهما عن قرب !!

ولاحت فى عينى الصبى نظرة ود فيها أن يرجوهما فى تحقيق أمنيته ··· ويعدهما فيها بالطعام بلا قفص ! ولكن العصفورين قفزا الى الفضاء ليسقطا فى خلاء مجاور البيت ··

كنت أعرف انهما لن يذهبا بعيدا ، ولم أكن أحب أن يرى طفلى المصير القاسى الذى ينتظرهما ، قلت له وأنا أدعوه للدخول من الشرفة :

ـ سوف يطيران الى أقرب شجرة ، ويتخذان فوقها عشا ..

لم يرد الصبى ... ومضت فى عينيه نظرة حزينة مستريبة ..مضت أيام دون أن تفارق عينيه تلك النظرة الحزينة المستريبة التى تتابع العصافير البعيدة وهى تتقافز وتلهو وتلعب دون أن تسمح له برؤيتها عن قرب !!

انتظرت أن ينسى طفلى مثل كل الأطفال سؤاله وحزنه ولكنه لم يفعل ذلك الا فى ذلك الأصيل الذى طرق فيه باب حجرتى . ودخل على أطراف أصابع قدميه يشير الى لكى أتبعه فى صمت وحذر ... لم أسأله عما يريد فقد كنت سعيدا بنظرة السعادة فى عينيه وكان يكرر لى اشارته بأصبعه على شفتيه المضمومتين لكى أتبعه فى صمت . سرت وراءه الى حجرة صغيرة مخصصة للأشياء القديمة ، لها نافذة زجاجية مغلقة دائما تطل على مسقط خلفى للعمارة ، ولأن أحدا لا يدخل هذه الحجرة الا ليأخذ شيئا أو يتركه ...

أشار الصغير بأصبعه الى النافذة الزجاجية المغلقة دائما .. خلفها وعلى حافة الافريز الخارجى كان يوجد بينه وبين ماسورة المياه فى العمارة عش للعصافير ترتفع منه رؤوسها الصغيرة . وهى تهم بالتقاط الحب من أمها التى تذهب وتعود به !

كانت أمنية الصغير تتحقق على نحو رائع لم يخطر ببالى أو ببالة كانت هناك عصافير جميلة تزقزق وترفرف بأجنحتها ، بلا جوع أو خوف ، كان هو فى مكمنه يراها كما تمنى دائما عن قرب !!

لن أنسى ما حييت نظرة الفرح فى عينى طفلى ... ويبدو أنه لم يجد فى عينى مثل هذه النظرة ... سألنى وهو يتقدمنى الى خارج الغرفة الصغيرة .

ألست سعيدا يا أبى لأنك أبصرت مثلى عصفورا عن قرب ؟؟

ـ سعيد جدا يا عزيزى ! لماذا تظن اننى غير سعيد ؟

لانك تبدو حزينا حقا يا أبى !

حاولت عبثا أن أرسم ابتسامة على شفتى ، ولكنه عاد وكرر السؤال :

لماذا أنت حزين يا أبى ؟؟

لم أدر ماذا أقول له ؟ لولدى . كان فى حاجة الى عشر سنين فوق عمره لأحدثه عن العصافير الجميلة التى يعشقها الكبار أيضا والتى يحلمون برؤيتها عن قرب وهى غير جائعة وغير خائفة ! ولكنهم لا يقدرون لأنهم لم يجدوا بعد مثل هـذه النافذة التى لا تحجب الرؤية ولكنها تحجب الخوف !

وأودعت حيرتى وحزنى قبلة على وجه الصغير السعيد حتى لا اقلل من سعادته ، وحتى يصمت متمنيا أن يجد جيله دائما هذه النوافذ التى لا تحجب الرؤية ولكنها تحجب الخوف . وحتى يبصر عصافيره الجميلة دائما عن قرب !!

عندما بكى سيدنا الخضر ...

فى هذه المرة عرفته ، لأول وهلة عرفته ، لم تضللنى ثيابه ، فأنا أعرف أنه يلبس لكل حال لبوسها ، وفى هذا الصباح كانت ثيابه مثل ثياب العاملين فى مؤسسة البناء الحديث التى أعمل فيها ، وأغذ السير فى سبيل الوصول اليها فى موعدى .

كان الطريق زراعيا متربا ، وفى مثل هذا الوقت المبكر فان الطريق يغطيه ضباب كثيف يأتى من الحقول الخضراء المغطاة أوراقها بالندى ، ومن الترعة التى تمتد بجوار الطريق الزراعى ، ومن قلب الضباب برز فجأة :

ـ صباح الخير .

ـ صباح النور .

قالها بصوت يقع بين الألفة والوحشة ، وقلتها بصوت يقع بين الرجاء والخوف وحل بيننا الصمت ، صمت سمح لى بأن ألملم أجزاء نفسى التى بعثرتها المفاجأة . كانت قد مضت فترة طويلة على المرة

الأولى ـ والتى كنت أظنها الأخيرة ـ التى رأيته فيها ، ظننته غضب منى لأنى بحت بسره ، رويت للناس ما جرى بينه وبينى ، لكن هـا هو « سيدى ومولاى الخضر عليـه السلام » يعود ، من قلب الضباب يعود ، يرتدى ثياب العاملين فى مؤسسة البناء ، وكعادتى معه لم أحاول أن أرفع رأسى نحو وجهه الكريم ، الطريقة التى يظهر بها تملأنى يقينـا بأنه هو ، صـوته الذى يقع دائما بين الألفة والوحشة ٠الدماء التى تركض فى شراييني قبيـل أن أسمع خفق نعليه ، وبالتأكيد فهو لم يغضب منى لأننى بحت بسره ولست فى حاجة الى أن أنظر فى وجهه لأتأكد من صدق ما أشعر به ، يكفى أنه عاد ، ولو جاء غاضبا أو معاتبا لضاقت بى الأرض بما رحبت ٠٠

حسبى الآن أنه يعود ، فى هذا الصـباح يعود ، لعله التحق مثلى بالعمل فى مؤسسة البناء ، والطريق طويل لا يزال و ٠٠٠ ومن قلب الضباب برزت فجأة سيارة فارهة أنيقة لم نشعر بقدومها ، شعرنا فقط بوقوفها المفـاجىء بجوارنا ، يقودها سائق لا أعـرف هويته ، لكن ملامح وجهه تشى بأرستقراطية ودودة مهذبة ، دائما كانت مثل هذه السيارات تقطع مثل هذا الطريق ، لانه أقصر طريق الى مدينة « المنصورة » ، ولكنها أبدا ما كانت لتتوقف لأحد ، تثير من خلفها زوابع ترابية ما تلبث أن تختفى بين الحقول لتظهر من جديد وجوه الفلاحين ووجوه العاملين فى مؤسسة البناء التى اختفت لبعض الوقت فى هذه الزوابع الترابية ٠٠

من نافذة السيارة أطل الوجه الارستقراطى الودود المهذب وفى عينيـه سؤال ، ظننتـه يعبر هذا الطريق لأول مرة ، ويسأل عنه ، عن طريقه ، ولكنه قطع ظنونى بسؤال واضح :

ـ ما وجهتكما ؟

ـ مؤسسة البناء ٠

قلتها بلا تفكير ، ودون أن أسأل سيدى ومولاى عن وجهته ، وكأننى أعرفها كما أعرفه ٠

ـ انها فى طريقى ، والسيارة خالية ، يمكننى أن أوصلكما ٠

لم أحر جوابا ، لحظتها فقط أدركت أننى تسرعت بجوابى ، لعلى لم أكن أريد أن يكون معنا ثالث ، لعلى شعرت بأنه ليس من حقى أن أتخذ قرارا بالقبول أو الرفض فى أمر لا يتعلق بى وحدى ، لعلى فوجئت بالعرض الكريم لأنه رغم بساطته ومنطقيته لم يكن مألوفا ٠٠

ـ انها فى طريقى ، والسيارة كما ترون تتسع لكثيرين ، ولن أتكلف شيئا فى توصيلكما ٠٠

فى هذه اللحظة كدت أقع فى المحظور ، كدت أرفع رأسى الى وجه سيدى ومولاى لعلى أرى فيه ما ينم عن قبوله أو رفضه ، لكننى وقبل أن أفعلها ، وجدته يجذبنى بقوة من ذراعى بعيدا عن السيارة الفارهة والوجه الارستقراطى الودود المهذب ، وحين أفقت من هذه الجذبة كانت السيارة تمضى مخلفة وراءها عاصفة ترابية لعلها كانت تخفى خجل سائقها كما كانت تخفى حيرتى وخوفى وسرورى ، نعم سرورى لاننا عدنا وحدنا من جديد ، ومهما يكن ما وقعت فيه من خطأ فيكفى أننا لا نزال معا ٠٠ ولو كان ما أنتظره هو العقوبة ٠

ولم أنتظر ما يقوله أو يفعله سيدى ومولاى ، وجدتنى وأنا لا أزال مخلوع القلب والذراع أتوجه اليه بسؤال ربما ما كنت أجرؤ عليه لو لم أكن كذلك :

ـ لماذا نرفض منة لا تكلف صاحبها شيئا ، ونحن فى حاجة اليها ؟

فى الحقيقة لم أكن أعنى ما أقول تماما ، كنت كمن يعتذر عن شىء لم يفعله ، وكأننى أحاسب سيدى ومولاى وقبل أن يحاسبنى ، ومع اننى على يقين من أنه يعرف دخيلة نفسى ، وأنه يبتسم من سذاجة حيلتى لكى أدفعه لحديث أتمناه بقدر ما أخشاه .

فقد سمعته يقول بعد أن خلى ذراعى من قبضته :

ـ حين توجد أماكن خالية فى سيارة يقودها رجل وحيد فى الوقت الذى يسير فيه على الطريق نفسه عشرات الرجال والنساء فى برد الشتاء أو فى حر الصيف فمعنى ذلك أن ثمة خلل فى الأمور يا بنى ، ولن يستقيم الخلل بأن يفسح لى ولك مكانا فى سيارته .

ـ أليس من الأفضل يا سيدى أن يستقيم جزء من الخلل بركوبنا معه ؟

ـ أو تعتقد حقا أنه يستقيم جزء من الخلل بركوبنا معه ؟

ـ لو فعلها كل من يقود سيارة بها مقاعد خالية على طريق به أناس يمشون على أقدامهم فى برد الشتاء أو فى حر الصيف ! .

ـ نعم يا بنى ... هكذا يتفشى الفساد فى كل الأمور ... يبدأ بأمنية .. لقد فعلها رجل ، فنتصور أنه من الممكن أن يفعلها كل الرجال ، مع أنهم لم يفعلوها أبدا . وبدلا من أن نسأل أنفسنا : لماذا لا يفعلها كل الرجال ؟ ولماذا فعلها ذلك الرجل وحده ؟ نغلق بصائرنا لنلحق بما نظنه فرصتنا . مع أننا لو تريثنا قليلا لصادفنا الحقيقة الواضحة فيما قاله وفيما قلناه ..

ثم صمت سيدى ومولاى قليلا كأنه يترك لى الفرصة لأفكر فيما قاله مع أن كلماته جعلتنى عاجزا عن أى تفكير ثم استرسل قائلا :

ـ ان هذا الرجل الارستقراطى الذى بهرك برقته وانسانيته ليس أكثر سوءا منك ٠

ولو رأيت دخيلته كما ترى دخيلتك لما وجدت فرقا كبيرا بينكما ـ على الأقل ـ بالنسبة لما عرضه علينا ولما رفضناه ٠٠

فى دخيلتك « أن هذه منة لا تكلف صاحبها شيئا كثيرا ويمكنك أن تفيد منها دون أن تشعر بأنه يطوق عنقك بجميل » ٠

وفى دخيلته « أنها فرصة ليأسر روح انسان بجميل لا يكلفه قليلا أو كثيرا » ٠ كلاكما لا يرى سوى فرصته ، وهكذا يبدأ الفساد يا بنى طريقه ٠ حين نغلق أبصارنا وبصائرنا عما سوانا ، حين نعتقد أن جزءا من الخلل قد أصلح لأن هذا الجزء يقع فى كلنا نحن ٠٠

كدت أقول لـه ، لسيدى ومولاى « الخضر عليـه السلام » : « أنت تعقد الأمور كثيرا يا مولاى ٠٠٠ ولكننى لم أجرؤ » ومع اننى كنت أدرك أنه يدرك دخيلتى ، فقد ظللت صامتا ، وكأننى بصمتى هذا أعلن نوعا من الاحتجاج أو الرفض لا أقوى على اعلانه بصوتى ٠

« هذا رجل يا مولاى لا نعرفه ولا يعرفنا ، يفعل خيرا لا يقصد به شخصا بعينه ، فلماذا ٠٠٠ ؟؟

قاطعنى سيدى ومولاى « الخضر عليـه السلام » ، قاطـع صمتى ، قاطع خواطرى التى لم أعلنها وكأنه كان يتابعها كلمة ٠٠٠ كلمة ٠٠٠ قاطعها قائلا :

« كان مثل ذلك الرجل لا يعرف أحدا ولا أحد يعرفه ٠٠٠ وكان يقطع طريقا كهذا الطريق فى سيارة ليست مثل هذه السيارة ، كان ذلك منذ سنين طويلة ، ولعل القرى التى كان يمر بها كانت مثل قرانا هذه ٠٠٠ تتشابه القرى فى كل بلاد الدنيا فى أنها صغيرة ويعرف الناس بعضهم بعضا ، لم تكن سيارته لنقل الركاب ولكنها

كانت لشحن البضائع ، شاحنة كبيرة كانت تثير كثيرا من الغبار ، وكثيرا جدا من دهشة الناس وسرورهم وخوفهم فى ذلك الزمن البعيد ، وفى ذلك الزمن يقود السيارة من يملكها ، يمضى بها الى الميناء فارغة ، ويعود بها محملة بالبضائع التى تجىء من وراء البحار ليبيعها فى بلاد ومدن بعيدة غير تلك القرى التى يمر بها فى طريقه الى الميناء ...

وفى طريقه الى الميناء هجس فى رأسه أن يحمل معه فى عربته الخالية كل من يمر بهم من المشاة الى أى مكان يقصدونه ، ما دام فى طريقه .

ولعله قد دار برأسه السؤال نفسه :

– ماذا أخسر بنقلهم الى حيث يريدون ؟

ولعلهم قد دار برؤوسهم سؤالك نفسه .

– ولماذا نرفض منة لا تكلف صاحبها شيئا بينما تحقق لنا الفائدة ؟؟

ولعلهم طمأنوا أنفسهم بالطريقة نفسها التى تطمئن بها نفسك : هذا الرجل لا نعرفه ولا يعرفنا ، ولعله يقصد الخير لوجه الله ..

فى هذه اللحظة عبرت بجوارنا سيارة أخرى أنيقة وفارهة دون أن تتوقف فحمدت الله ، بينما جاء صوت سيدى ومولاى هادئا نقيا وصافيا رغم غبار الطريق .

– لكن لا شىء يبقى كما هو ، لم يبق الرجل الغريب غريبا ، فى كل القرى كانوا يتحدثون عنه ، ويتوقعون مقدمه ، ويصفون ثيابه وحديثه وشاحنته ، الجميع كانوا يتحدثون ، الأغنياء الذين

يركبون بجواره فى كابينة السيارة ، والفقراء الذين كانوا يتكدسون خلف الكابينة مكان البضائع ٠

« هذا رجل يرى بلادا لا يرونها ، وينقل بضائع لا يعرفونها ، ويقدم لهم معروفا دون أن ينتظر الجزاء » وهذا هو الأمر الذى بقى أكثر غرابة من الرجل ٠

ولكن حتى هذا لم يبق كما هو ٠

ذات يوم ، توقفت الشاحنة أمام احدى القرى وهى عائدة من الميناء ومحملة بالبضائع التى لا يعرفونها ، قال الرجل « الغريب » ، وكانوا قد جعلوا من هذه الصفة اسما له :

ـ ان عطلا أصاب ماكينة السيارة ، ولن يتمكن من اصلاحها سوى مهندس فى المدينة البعيدة ٠

والتف حوله أهل القرية ، التى تعطلت أمامها الشاحنة كانت هذه أول فرصة ليردوا الجميل الى الرجل الذى طالما طوق أعناقهم بجميله ، أولموا له وليمة كبيرة ، قدم كل واحد من داره شيئا ، وتطوع رجل لم يكن فى داره ما يقدمه بأن يذهب الى المدينة البعيدة ليجىء بالمهندس الذى يصلح السيارة ، وذهل الغريب من كرمهم أو هكذا بدا لهم ، ولكن ذهولهم كان أشد حين أخرج لهم من شاحنته صناديق من الفاكهة لم يروا مثلها أبدا فى أسواقهم القريبة أو البعيدة وأقسم أن يذوقها كل واحد من أهل القرية ، ولم تكن حيرة الأغنياء فى القرية بأقل من حيرة الفقراء ، فجميعهم لم يذق فى حياته كلها فاكهة بهذه الحلاوة فى طعمها وشكلها ٠ وجميعهم بات فى حيرة من أمر هذا الغريب الذى أرادوا أن يردوا بعض جميله فطوق أعناقهم بجميل أشد ٠ ولكن جميعهم كان لديهم من الوقت ومن الفضول ما يدفعهم الى أن يسألوه عن اسم هذه الفاكهة ، وأين تزرع وأين تباع وكم ثمنها !؟

فى هدوء أجاب الرجل الغريب :

– انها تزرع فى بلاد الهنـد ، واسمها عند اهـل المـدن ، « الهندية » ، وثمنها غال جدا ، فلا يشتريها سوى سكان القصور فى المدن البعيدة ، وقد قدمتها لكم كهدية تعبيرا عن محبتى ...

– ألا تتاجر فى غير هذا النوع من الفاكهة ؟

– أتاجر فى كل الأنواع ثم أضاف وابتسامة هادئة تتراوح على شفتيه : لدى فواكه مثل التى تشترونها من أسواقكم .

– وبكم تبيعها أيها السيد ؟

– مثلما تشترونها .

– أيمكن أن تبيعها لنا ؟

قالوها وكأنهم يريدون أن يقولوا للرجل : اننا نريـد بهذه الطريقة أن نرد لك بعض الجميل .

– نعم لو اردتم ، ودون أن تكونوا فى حاجـة الى السـعى للحصول عليها من الأسواق القريبة أو البعيدة .

قالها وكأنه يريد أن يفهمهم أنه يفهم أسبابهم الحقيقية وانه لا يزال صاحب اليد العليا .

مرة أخرى توقفت بجوارنا سيارة أنيقة فارهة ، أطـل منها وجه أنيق مهذب ، ولكنه هذه المرة سألنا فى وضوح عما اذا كان هذا الطريق يوصل الى مؤسسة البناء ؟

وحين أجبته هز رأسـه شاكرا ومضى مخلفا وراءه عاصفته الترابية ودون كلمة .

كان غريبا أن يقصد مثل هذا العدد من السيارات الأنيقة مؤسستنا فى هذا الصباح الذى ألتقى فيها بسيدى ومولاى ، ولكنى لم أشأ أن أقطع حديث سيدى ومولاى بأى سؤال جانبى ..

كان يتابع حديثه بصوته العميق الرائق :

« فى اليوم التالى فوجىء أهل القرية بخص خشبى مقام على الطريق الزراعى قد عرضت فيه على شكل بديع وجذاب أشهى ما من الفاكهة التى كانت تعرض فى أسواق المدن البعيدة أو القريبة ولأول مرة يرى كل الناس فى هذه القرية وفى القرى المجاورة كل هذا القدر من الفاكهة معروضة فى طريق ذهابهم الى الحقول وفى طريق عودتهم منها ، معروضا بطريقة جذابة ومبهرة ، وأنت تعرف أنه فى كل القرى ، فى كل البلاد ، وحتى فى أيامنا هذه يوجد أناس فقراء لا يكادون يغادرون القرية يعيشون ويموتون فى حقولها وفى دروبها ، لا يرون شروق الشمس أو غروبها فى غير أرضها وسمائها ، وكان الأمر بالنسبة لهؤلاء أكثر غرابة واثارة فهم لم يذهبوا الى أية سوق ، ولم يذوقوا أية فاكهة وكانت المرة الأولى التى يتذوقون فيها طعم الفاكهة هى التى حل فيها الغريب بقريتهم حين تعطلت شاحنته أمامها ، وكان من الطبيعى أن يكون ما ينتظرونه من هذا الغريب الذى يحملهم فى شاحنته أحيانا ، ويذيقهم من فاكهته أحيانا ، كان من الطبيعى أن ينتظروا منه الغرائب دائما ، وأن يتوقعوها بلا دهشة ، ولم تكن مفاجأتهم كبيرة حين وجدوه يقف ذات يوم أمام خصه الخشبى الذى يبيع منه الفاكهة لمن كانوا يشترونها من الأسواق من أغنياء القرية .

أقول لك انهم لم يفاجأوا كثيرا حين وجدوه بنفسه يقف بدلا من البائع الذى جاء به مع الخص ، ليقول لهم ، لفقراء القرية واجرائها ، وكأنه يرد على سؤال فى عيونهم لم ينطقوا به ..

– يمكنكم أن تأخذوا من الفاكهة وأن تسددوا ثمنها فى نهاية الشهر أو نهاية العام .

وحين لمح على وجوههم ابتسامة غير مصدقة ، حين أوضح بعضهم بأنهم لا يعرفون النقود ولا يملكونها ، وانهم يشتغلون بطعامهم فقط ، أجابهم قائلا :

– يمكنكم أن تأخذوا من الفاكهة ، وأن تسددوا ثمنها عملا عندى ومعى ، على ظهر هذه الشاحنة أو فى الميناء .. « كانت السيارات الفارهة الأنيقة تتتابع على الطريق الزراعى هى وزوابعها الترابية ، تقف أحيانا ولا تقف فى أكثر الأحيان بطريقة كادت تشتت انتباهى فلا أحسن الاستماع الى سيدى ومولاى ، كما كنا نكاد نقترب من مؤسسة البناء ، وأحس مولاى بحيرتى وقلقى وتشتتى ، وخوفى من أن ينتهى الطريق ودون أن تنتهى القصة ، وشعورى بأن أمرا غير عادى يجرى على هذا الطريق الزراعى بسرعة هذه السيارات وليس بالسرعة التى يتحدث بها سيدى ومولاى .. » .

– لا تقلق يا بنى ، فالقصة كادت تنتهى ، ما الذى تريد أن تعرفه بعد ذلك ؟

وتحولت ملامح وجهى الى سؤال كبير صامت فاستطرد سيدى ومولاى :

« كانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ هذه القرية التى يذوق فيها الناس جميعا طعم الفاكهة بنقودهم أو بعملهم أو بدين الى أجل قريب أو بعيد . وكان جديرا بهذا اليوم أن يدخل تاريخ القرية ، فهو أول يوم يأخذ فيه عدد من أجراء القرية شيئا وقبل أن يدفعوا ثمنه ويجدون من يثق فى مجرد وعدهم بالسداد .

وهو أول يوم يأكل فيه الناس جميعا من الفاكهة نفسها • ولكن هذا اليوم لم يبق سوى يوم واحد ، بعدها قال أغنياء القرية للرجل الغريب ، أنت تستأمن هؤلاء الفقراء على ثمن الفاكهة ، فلماذا لا تبيع لنا من « الهندية » وندفع لك فى آخر العام ؟ ألسنا أحق منهم وأجدر بالثقة ؟؟

وهكذا عادت قريتنا سيرتها الأولى ، عادت نوعين من الناس ، بعضهم ينعم بما لا ينعم به الآخرون ، لا يوحد بينهم سوى الديون •

ـ هل أنت مصر على أن تسمع بقية القصة ؟

قالها سيدى ومولاى بضجر •

ـ نعم •

قلتها بلهفة تكاد تصل الى حد الرجاء بأن يسرع فى رواية القصة وقبل أن ••• واستطرد سيدى ومولاى :

ـ وهكذا لم تصبح قريتنا أكثر سعادة مع انهم جميعا أصبحوا يذوقون الفاكهة لأول مرة • ذلك أنهم لا يزالون يشعرون بالمسافات تفصل بينهم ، ولم يوحد بينهم سوى انهم جميعا مدينون للغريب ••

يومها قلت لهم : هذا رجل ملعون ، وهذه فاكهة ملعونة ولكن أحدا لم يستمع الى •

قلت له بلا تفكير : وأين كنت يومها ياسيدى ؟

ـ كنت عجوزا فى هذه القرية •

قالها بالبساطة نفسها التى يتحدث بها طول الوقت ، ثم استطرد :

– فى نهاية العام جاء الرجل الغريب ليسترد ديونه من القرية طبعا كان هناك من سدد ديونه وكان هناك من لم يفعل ، ولم يكن من سدد ديونه هم الأغنياء وحدهم . ولم يكن الفقراء هم من امتنعوا وحدهم عن سداد الديون .

كان لابد أن يجىء يوم الحساب ، وحتى فى هذا اليوم أثبت لهم الرجل الغريب أنه لا يزال أكثر رجل عرفوه براعة وذكاء وفضلا عليهم جميعا . وأنه بحق رجل الغرائب والمعجزات ..

قال لهم : لا تبتئسوا أيها الرجال لكل مشكلة حل ، ومشكلتكم انكم لا تملكون نقودا كافية ، انكم تزرعون أرضكم قمحا وحبوبا أخرى رخيصة الثمن ، هل فكرتم فى أن تزرعوا أرضكم كلها فاكهة ؟ فتسددوا ديونكم وتأكلوا وتربحوا وتصبحوا أسعد قرية على وجه الأرض .. قبل أن يسألوا سؤالا واحدا وقبل أن يفيقوا من دهشتهم قال لهم :

– سوف أحضر لكم البذور والسماد وكل ما من شأنه أن يجعل أرضكم صالحة لانتاج الفاكهة .

وقبل أن يفيقوا من دهشتهم الثانية عاجلهم بقوله :

– مستعد لأن أدفع لكم من الآن ثمن محصول الفاكهة الذى ستنتجه الأرض فى العام القادم بثمنها اليوم حتى تطمئن قلوبكم ، كل ما أريده أن توقعوا لى على ورقة بأننى صاحب أشجار الفاكهة التى سوف أجلبها لكم ، أملك الأشجار وما تثمره وأنتم تملكون الأرض فهى أرضكم ... » .

قالها الرجل الغريب وهو يخرج من جيبه كيسا مليئا بالنقود لم تر مثله قريتنا فى حياتها كلها وراح أمام العيون الذاهلة يعد النقود ويعد من يملكون أرضا من أهل القرية .

هل أنت فى حاجة يا بنى لأروى لك بقية القصة ؟

كان رأسى يدور بما أسمعه ، ولم أجد ما أقوله سوى أن أهز رأسى راجيا سيدى أن يتم قصته :

استطرد وكأنه يقرأ كل خطرات نفسى :

ـ طبعا تقول انه منح نقوده لمن يملكون أرضا فما الذى منحه للفقراء والأجراء ؟ وأقول لك : انه لم يكن فى حاجة الى أن يمنحهم شيئا فلا شىء يتوقف على قبولهم أو رفضهم ، ولكنه مع ذلك منحهم وعدا كان له أثر السحر فى نفوسهم منحهم « وعدا » بأن يضاعف أجورهم فمن يعمل فى حقول الفاكهة غير من يعمل فى حقول القمح والبرسيم ...

وهكذا مضت الأمور يا بنى وتطورت .

« فى البداية كان الرجل الغريب يملك الأشجار وأغنياء القرية يملكون الأرض ، وكانت تلك أول مرة تنفصل فيها الأرض عن أشجارها ، وحين تنفصل الأرض عن أشجارها فمعنى ذلك أنه قد حان الوقت لينفصل الفلاح عن أرضه وشجره ، لقد غرقت القرية فى الديون مع انها كانت غارقة فى النقود كذلك .

تسأل عن سر هذا اللغز ، لقد فقدت النقود قيمتها يابنى ، ذلك ان أهالى القرى المجاورة كانوا قد فعلوا الشىء نفسه ، ووقعوا تحت السحر نفسه ، سحر النقود فكفوا عن زراعة القمح والبرسيم وتربية الماشية ، وجاء يوم كان الفلاحون جميعا يبحثون عن رغيف الخبز وقطعة الجبن واللحم فلا يجدونها ، وطبعا لم يكن هناك سوى الرجل الغريب يمكنه أن يشتريها لهم من بلاد بعيدة بأغلى مما كانوا يشترون الفاكهة بكثير ، وفى هذه المرة ، ما كانت النقود الكثيرة لتكفى ،

أو لتبقى فأنت تعرف أن الناس لا تحيا بالفاكهة وحدها . ولكن من يستغنى عن الخبز أو قطعة الجبن أو قطعة اللحم ، ولم يكن هناك « بد هذه المرة سوى أن يبيعوا أرضهم وعرقهم للرجل الغريب من أجل لقمة الخبز وقطعة الجبن ، لم يكن هناك سوى أن تكتمل دورة الدائرة فحين تنفصل الأشجار عن أرضها ، لابد أن ينفصل الانسان عن أرضه وشجره وحريته جميعا . وكانت البداية فى هذا كله يا بنى جميلا صغيرا طوق أعناق الرجال وأعمى بصائرهم وأبصارهم . كانت البداية فى هذا كله أن بعض الناس ظنوا ما تظنه أنت الآن من أن اصلاح جزء من الخلل يمكن أن يكون أفضل من أن يبقى الخلل كاملا . مع أنه لا يكون هناك اصلاح للجزء أو الكل ما دمنا لا نبصر فيما يقدم لنا سوى ما يصيبنا نحن منه ليوم واحد أو لأيام قليلة ..

كنا قد وصلنا الى مؤسسة البناء الحديث ، وكانت الضجة التى تقترب منا ونقترب منها تمنعنى كما تمنع سيدى ومولاى من أى تعليق أو سؤال .

وكانت الضجة تفرض علينا أن نسأل عن السر .

سر الزحام والعربات الفارهة الأنيقة التى توقفت جميعها أمام المصنع الكبير ، والأعلام والزينات التى تطوق مداخل المؤسسة وتناثر السر على ألسنة عشرات العمال الذين أحاطوا بنا من كل جانب ونحن فى طريقنا الى مقر الحفل الكبير فى فناء المؤسسة الفسيح .

— انها ليلة القدر .

— مناسبة تقيمها مؤسسة اعلامية كبيرة فى كل عام من أجل العمال فى كل مكان .

— ينتشر مندوبون عن المؤسسة فى أنحاء القطر يدعون العمال لتوصيلهم الى أماكن العمل ...

- السعيد من يركب معهم ، هو الذى يلتقى بليلة قدره .

- يسألونه عن أحواله وما يريده ، وكل ما يطلبه يتحقق له .

- لقد ركبت معهم ، وحدثتهم عن مرض زوجتى دون أن أعرف شيئا .

- حظك من السماء ، سوف تعالج زوجتك فى أرقى المستشفيات عند أشهر الأطباء .

- لقد ركبت معهم وحدثتهم عن حاجتى الى جهاز تلفزيون ولو كنت أعلم لطلبت ...

- سوف تتحقق امنيتك على كل حال .

- ولكنهم لم يتوقفوا بجوارى .

قالها أحد العمال .

- لم يكن المندوبون فى كل السيارات ، هؤلاء مدعوون للحفل .

- .....

- .....

حين بدأ الحفل ، ظهر الوجه الارستقراطى الودود المهذب بجوار مدير المؤسسة ، وبدأوا ينادون أسماء من ظهرت لهم ليلة القدر ، ومع كل اسم كان يتقدم أحد العمال تحيطه آلاف العيون بالدهشة والحيرة .. والحسرة وفجأة توقف الوجه الارستقراطى الودود المهذب وقال للأمانة هناك عاملان توقفت بجوارهما ليلة القدر ، ولكن لسوء حظهما لم يستجيبا لندائها ، وقد قررنا أن نحقق امنيتهما لو تقدما الآن الى المنصة .

تلفت الى جوارى ، وكأننى أطلب النجدة ، ولكننى لم أجده بجوارى ، وكان على أن اتخذ هذه المرة قرارى منفردا ٠

النداء يتكرر ، وآلاف العيون تبحث عن رجلين أخطأهما الحظ ، وعاد يبحث عنهما ٠

النداء يرجو ، لان منحة القدر لا ينبغى أن ترد ، وما لم يتقدم من يستحقها الآن فسوف نلجأ الى القرعة للبحث عن مستحق جديد ٠

الوجه الارستقراطى الودود المهذب تومض فيه عينان براقتان وتفتشان الوجوه بحثا عن وجهين ، ربما لا يزال يذكرهما ، لو ظل سيدى بجوارى لما أخطأنا الوجه ذو العينين النفاذتين ، قدماى ترتعشان ووجوه زوجتى وأولادى وأقاربى تلوح لى فى كل مكان أتطلع اليه ٠

طائر الحظ أتعبه التحليق ، وأنا أشد تعبا ، وحتى لو تقدمت وحدى لما حلت بى سوى نقمة سيدى ومولاى ، فالجائزة لرجلين أحدهما يضع أحدى قدميه خارج الزمان والمكان ٠٠

النداء يتكرر ، وشعور قوى بأنه يرهق الناس بأشد مما يرهقنى ، وبأن سيدى ومولاى يجب أن يفعل شيئا ٠ ليسكت هذا النداء الملح ٠ ولكن يبدو ان سيدى ومولاى قد فعل كل ما يقدر عليه ٠٠

الاعياء يشدنى الى الأرض ، وأشعر أنه يجب أن يتقدم رجلان ملعونان قبل أن يشد الاعياء والاغراء كل هذه الجموع المتعبة الى الأرض أو الى المنصة فى أعظم سقطة ٠

ربما كنت قد سقطت تماما حين خيل لى أن رجلين يتقدمان الى المنصة وسط صخب جماهيرى مجنون ، ولم أشعر بأية دهشة حين سمعت الوجه الارستقراطى الودود المهذب يعلن بلهجة ودودة مهذبة أنه تعرف على الرجلين نفسيهما • أنهما فعلا يستحقان الجائزة •

فى تلك اللحظة خيل الى اننى أراه سيدى ومولاى يعود الى جوارى ليساعدنى على الوقوف ، فى هذه المرة لم استطع أن أمنع نفسى من النظر فى وجهه الكريم ولكنى لم أستبن ملامحه فقد كانت عيناه وربما عيناى غارقة فى الدموع •••

التعب

«مجرد سؤال » ٠

لا أدرى متى بدأت ألاحظ أن شـــعورى بالتعب يطغى على شعورى بأى شىء آخر ؟؟

« أصل الحكاية »

ربما كانت زوجتى هى أول من لاحظ ذلك ، لاحظت اننى أردد كثيرا ، بمناسبة وبلا مناسبة كلمة التعب ، وكل مشتقاتها وما يشير اليها ، آخر مرة حدث فيها ذلك ، كنت مستيقظا لتوى من النوم ٠٠٠ بجوار السرير يقف « عصام » أصغر أبنائى ، فى عينيه سؤال نسيت أنى أجلت الاجابة عنه كثيرا ! صرخت فيه معتقدا أنه هو الذى تسبب فى ايقاظى ٠

ـ لماذا لا تدعونى أستريح لحظة ؟

قالت زوجتى بصوت حاولت أن يجىء طبيعيا :

ـ ما هى الحكاية ؟ لقد نمت ساعتين ، ولم يوقظك أحد ! شعرت بالخجل وبالتعب معا ، تذكرت على الفور كل المواقف المشابهة ، لم أعرف كيف أشرح لها الأمر تابعت زوجتى بعد أن أخرجت « عصام » من الحجرة وبلهجة رقيقة وساخرة معا :

ـ سوف ينتهى بك الأمر الى أن تصدق حكاية تعبك هذه ! « قبل هذه الأيام كنت أشعر أحيانا بالتعب ، ولكن كان ذلك واضحا ، مفهوم الأسباب ، ومحدد المعالم حين أسير طويلا قدماى تتعبان ، ضلوعى تتعب حين أنحشر فى « الأتوبيس » ، صدرى يتعب من كثرة التدخين ، عيناى تتعبان من كثرة القراءة ، رأسى يدور بالصداع حين تتقاذفه مشكلات كثيرة مختلفة الأنواع والأحجام ، كان ذلك كله مفهوما ، ويزول التعب بزوال أسبابه ، لكن ما أشعر به فى هذه الأيام شىء مختلف تماما ·· تعب آخر لا أميز أسبابه ، تعب يسرى فى جسدى كله كأنما مع الدماء ، ينام ويقوم معى يعمل ويستريح معى ·· ! » ·

قالت زوجتى وكأنما أتعبها صمتى :

ـ هل تخفى عنى بعض متاعبك ؟ دائما كنت تحدثنى عنها ، لماذا لا تفعل ذلك الآن ؟؟

لم أدا ماذا أقول لها ؟ قلت محاولا أن أحول الموضوع الى نكتة ولو كانت سخيفة :

ـ لا أعرف ··· يبدو أنه السن ··· لقد تجاوزت الأربعين ··· ألم يخبرك أحد بذلك ؟ ما الذى يحدث للناس بعد هذه السن ؟؟ ووضعت على شفتى ابتسامة بائسة وكأننى أنتظر ردا على سؤالى ؟ قالت وهى تهم بالانصراف ·

ـ يصبح دمهم ثقيلا !

ـ أين تذهبين ؟ اننى متعب حقيقة ! لماذا لا تأخذين الموضوع بجد ؟ حين عادت زوجتى لتجلس بجوارى على حافة السرير ، لمحت فى عينيها نظرة مشفقة ومدركة ، وكأن صراخى الذى هو بلا معنى قد أصبح له عندها معنى !

قالت وهى تطوق كتفى :

ـ لماذا لا تذهب الى الدكتور ؟

ـ ماذا أقول له ؟ ليس هناك شىء محدد أشكو منه .

ـ قل له أنك متعب !!

ـ تمزحين ثانية !

ـ أبدا .. سأذهب أنا لأقول له اننى متعبة ... منك !

« أول زيارة لأول طبيب »

عيادة الطبيب الباطنى الكبير ملأى بالمرضى أو بالمتعبين ! زوجتى هى التى قالت بعد أن أسلمت لها أمرى :

« الطبيب الباطنى موكول بكل الأمراض التى لا نعرف لها مظهرا واضحا ، وهو وحده الذى يمكنه أن يوجهك الى أى طبيب آخر فى ضوء فحوصه الأولية » .

لو كنت أعرف أن بداية الراحة هى ألا تكون مسئولا ، لفعلت ذلك منذ وقت بعيد !

ورغم اننا حجزنا لدى الطبيب بالساعة والدقيقة ، فيبدو أنه لا مفر من الانتظار .. الانتظار دائما ... أين قرأت هذه الفكرة الساخرة التى تقول : « ان الانتظار أصبح علامة فى حياتنا ، ولابد

آن تنشأ فنون أو أعمال يمكن أن يشغل بها المنتظرون أنفسهم ، ولابد أن تتنوع هذه الفنـون لتنـاسب كل موقف فمن ينتظر فى طابور الفراخ غير من ينتظر فى عيادة طبيب ، غير من ينتظر مقعدا فى قطار أو سيارة ، وهؤلاء جميعا يختلفون عمن ينتظر حلا لمشكلة تبدو بلا حل !

ـ هذا الرجل ... ألا يشبه تماما عمك الحاج حبيب ؟ قلت لها .. لزوجتى وقد باغتنى السؤال محاولا أن أتفحص الرجل الذى أشارت اليه بطرف عينيها !

ـ لو لم أكن متأكدا من موت عمى منذ سنين لقمت من فورى ، وقبلت يديه ، وسألته عن أخبار أهلى فى البلد !

« زبائن الطبيب الباطنى أغلبهم من الفلاحين ، أغلبهم يشبهون أعمامى وأخوالى وكل أقاربى ، الآن فقط ألاحظ أن أقاربى جميعـا كانت لهم وجوه مريضة وكنت وأنا صبى فى القرية أعتقد ان الوجوه كلها لابد أن تكون هكذا ، جلدها كأنه مشدود على العظم ، لونه أسمر ... سمرة تخفى شحوبه ... والعيون غائرة منكسرة كأنها تتوقى رؤية شىء لا تحبه ويبـدو أننى نسيت كل شىء عن هذه الوجوه ... » .

ـ غريب انك لازلت تذكرين وجه عمى !؟

ـ كنت أحبه ... كان رجلا فيه قسوة وحنان ، من النادر أن تجد رجلا مثله !

« زوجتى تحل مشكلة الانتظار بطريقتها ... عمى رحمه الله رغم ان حياته كلها كانت انتظارا متصلا لما لا يأتى أبدا فلم يكن يلوح على وجهه أى أثر للقلق أو التعب ... كان كل شىء فظيع قد حدث فى حياته وانتهى منذ وقت مبكر جدا ... فعاش بقية حياته لا يخاف

ولا يرجو ! كان خفيرا نظاميا يتوقع اللصوص والمخاطر والمخاوف وقد حدثت كلها أو بعضها مرة أو مرات ثم هربت منه ، من قسوته أو من حنانه لا أدرى ، كان الانتظار قد أصبح عمله الذى لا يضيق به صبره وصدره !

عمى الآخر المريض فى العيادة يتململ فى مقعده ، يضع يده على مكان الألم فى بطنه ، عندما يدخل الى الطبيب سوف يشير الى مكان الألم ، أما أنا فالى أى شىء أشير ؟ أشير الى كلى قائلا :

ـ أنا متعب يا دكتور !

ـ أنت تكلم نفسك بصوت عال ! قالتهـا زوجتى بهمس : وابتسمت ملاطفة ومحرجة حين لاحظت حرجى ·

ـ فيم تسرح بينما أحاول أن أكلمك ؟

ـ لا شىء ··· أفكر فى عمى الذى مات ، وعمى الآخر الذى لا يزال يقاوم !

ـ لماذا لا تتسلى بقراءة هذه المجلات ؟

كيف لم ألاحظها من قبل ، هذه الكومة من المجلات الموضوعة أمامى منذ جلست ؟؟ مع انها موجودة لأمثالى رحت أقرأ العناوين ·· !

« عصر الوفاق وآثاره الغامضة والخطيرة على الدول الصغيرة والنامية ! » ، ولم أقرأ التفاصيل ، فى مجلة أخرى لفت نظرى هذا العنوان :

« المقاومة الفلسطينية تفقد فى صراعها مع بعض الأنظمة العربية أضعاف ما فقدته فى صراعها مع العدو الاسرائيلى ! » ونحيت المجلة الأخرى جانبا لأقرأ هذا السؤال فى مجلة ثالثة :

« الصين ·· هل تصبح العدو الأول لأمريكا وروسيا معا ··· ؟ » ، ألا يوجد موضوع يناسب المرضى والمتعبين ·

« فرنسا تصر على تفجير قنبلتها النووية محافظة بذلك على قوتها الدفاعية الخاصة » ·

ولا ينقذنى من قراءة التفاصيل سوى الممرض أخيرا جاء دورنا ··· الطبيب وحده هو الذى لا ينتظر ·

ـ أهلا ··· بسمة بالمقاس ··· عيناه على ويده على القلم يكتب الاسم والسن والعمل ، يرفع رأسه برهة ويتفحصنى وهو يكتب المهنة ··· ثم يلقى نظرة على نتائج التحليل المبدئية التى يقوم بها الممرض من تلقاء نفسه قبل دخولنا اليه !

ـ ما الذى تشكو منه ؟

جاءت اللحظة الحرجة ، قلت وأنا أحدق فى عينيه الزجاجيتين!

ـ شعور قوى ودائم بالتعب ··· ثم أضفت ، لا أملك تحديدا لمظاهره أو أسبابه !

ابتسامة أخرى بمقاس أكبر قليلا ·

ـ دعنى أفحصك أولا ·

وأستسلم لأصابعه المدربة ، لسماعته ، لأوامره بأن انهج وأسعل لجهاز ضغطه ، ثم أخيرا وقد عدنا لمكاننا الأول فى حجرة مكتبه لأسئلته :

هل تأخذ أجازتك ؟ أين تقضيها وكيف ؟

هل هذا معقول ؟ كم ساعة تعمل فى اليوم ؟ هل تقوم بأعمال أخرى غير الكتابة ؟ ما هى ؟ ولماذا ؟

هل الكتابة التى تحب أن تكتبها لا تدر عليك أجرا يتناسب مع ما تعتقده فى أهميتها ؟؟ لماذا ؟

لماذا لا تأخذ هذا النوع الآخر من الكتابة الذى لا تحبه وكأنه جزء من عملك الحكومى ؟؟

ما علاقتك بأصدقائك ؟ جميعهم ؟ ألست تبالغ ؟

ما آخر مرة زرت فيها قريتك ؟ متى كان آخر خطاب تلقيته أو أرسلته لأحد ؟

عند هذا الحد أستأذن زوجتى فى أن تنتظرنا قليلا بالخارج ثم أضاف متلطفا معى :

ـ يمكنك ألا تجيب على أى سؤال لا يروق لك !

وسأل الدكتور أسئلة أخرى أرى من حقى قياسا على ما أعطاه لى من حقوق الا أذكرها هنا ، ولكنى للأمانة أذكر أن أسئلته الأخيرة لم تكن كلها تدور حول علاقتى بزوجتى أو بغيرها من النساء !! » . ابتسامته الأخيرة تحولت الى ضحكة مجلجلة حين فرغ من آخر سؤال فى استجوابه ، قال وقد بدا أنه حطم فى حديثه معى كل الأطر والمقاييس :

ـ فى الحقيقة ... طريقتك فى الاجابة هى التى استدرجتنى لكل هذه الأسئلة ، لم يكن هذا من حقى ... لكن لا يجد الطبيب دائما زبونا مثلك ... ثم أضاف بعد فترة تمهل :

ـ ليس لك عندى علاج فصحتك الجسدية على ما يرام ومن المفروض أن أنصحك بزيارة الدكتور « يحيى » الطبيب النفسى المعروف فى العمارة المقابلة ، لكنى أشعر بعد هذه الدردشة أننا أصبحنا صديقين ، ومن حقى كصديق أن أصف لك ما جربته بنفسى

حين مررت بحالتك نفسها مع اختلاف الأسباب ... نعم تختلف الأسباب لكن النتيجة واحدة فالشعور بالتعب يحدث هنا (وأشار الى رأسه الذى لاحظت آنذاك فقط أن شعره أكرت يغزوه الشيب ، كما لاحظت أن عينيه الزجاجيتين قد أصبح لهما لون رمادى وردى) ان العلاج الوحيد الذى أجدى معى (ثم بدا فجأة كمن تذكر شيئا فضغط على الجرس ، وطلب من الممرض أن يحضر لنا فنجانين من القهوة ، وفى اللحظة نفسها قدم لى سيجارة من علبته غير ملاحظ أننى كنت أدخن بالفعل سيجارة كانت فى يدى) استطرد معتذرا :

- العلاج الوحيد الذى أجدى معى هو اننى تركت نفسى أغرق فى العمل ، كنت أحرص قبل ذلك على أن يكون لى وقت فراغ ، خلاله أقرأ أو أفكر أو أخالط الناس لكنى اكتشف مع الأسف أن ميكروب التعب اللعين ينمو فى مثل هذا المناخ .. لابد أن تواصل العمل حتى اللحظة التى يعجز فيها هذا (وأشار مرة أخرى الى رأسه) عن التفكير فى مسألة التعب أو غيرها من المسائل ، أن تعمل وتعمل دون تفكير فى غير العمل ذاته ... بعدها لا يبقى لك سوى متعة الحيوان بالنوم والطعام والجنس والشراب ... (آنذاك دخل الممرض بالقهوة ، وتخيلت لحظتها مدى سخط المنتظرين بالخارج من المرضى) بينما استطرد الدكتور وهو يرتشف قهوته :

منذ ما لا أعرف من السنين كنا جميعا ننعم مع أبناء المملكة الحيوانية جميعا بهذه المتع الرائعة ثم حدثت هذه القفزة التى لا يعرف أحد سرها ، وحين ننام ونأكل ونشرب ونضاجع النساء فان هذه اللحظات هى التى تلمس فيها أقدامنا الأرض فنشعر ببعض الراحة ، وهى راحة موقوتة لأننا نعاود القفز من جديد ، ألمح فى عينيك نظرة سخرية لا تهمنى وقد تهم الدكتور يحيى لو آثرت أن تذهب اليه وقد تجدى معك طريقتى فى العلاج وقد لا تجدى .

اننى أتحدث معك كصديق ، ومهما يكن فثمة أمل عظيم فى راحة أعمق تنتظرنا جميعا ... تنتظر أبناء المملكة الحيوانية كلها ... فأنت تعرف أنه حتى هذه الحيوانات البائسة كانت قد قفزت بدورها قفزة أشد غموضا فى أسبابها وأسلوبها من مادة الكون الأولى .. وحين يجىء الموت فاننا نقطع فى جزء أقل من الثانية تلك الرحلة المخيفة التى أوصلتنا اليها هذه القفزات المضنية منذ ملايين السنين وآنذاك سوف تستريح راحتك العظمى . ثم وقف الطبيب فجأة محييا « وكأنما خشى أن يجره هذا النوع من الحديث الى عالم التعب وقف دون ن ينتظر رأيى فى كلامه ! وكأنما قد قرر فجأة أن يعود الى العمل .

حين رويت لزوجتى ملخصا نصف أمين لما دار بين الدكتور وبينى من حوار منذ خرجت لم يخفف ذلك من غضبها عليه ، قالت وهى فى فورة الغضب :

ـ الشىء الوحيد المعقول فى كلام هذا المجنون هو نصيحته لنا بأن تزور الطبيب الآخر ! ثم أضافت :

ـ أنا واثقة أنك قد وجدت الآن سببا واحدا معقولا لمتاعبك!

ثم تابعت بالعصبية نفسها :

ـ لماذا لم تقل له السبب الحقيقى فى انه يعمل كالبغل طول الوقت ؟ أتعرف ؟ كان فى عيادته ما يقرب من عشرين مريضا فى ثلاثة جنيهات أجرة الكشف ، وهذا يعنى انه يحصل من عيادته وحدها فى الليلة على ما يزيد عن خمسين جنيها ، يحصل عليهم من أمثال عمك الحاج حبيب ثم يطالبك ـ هذا الحيوان ـ بأن تعمل مثله ؟!

ولم أقل لزوجتى رأيى الحقيقى لا فى كلامها ولا فى كلامه .

الزيارة الأولى للطبيب الثانى .

عيادة الطبيب النفسى أجمل وأرق ، مرضاه أكثر بؤسا رغم ان أغلبهم أفندية – بعضهم يغرق فى الضحك والآخرون فى الكآبة وليس بينهم أحد من أقاربى ! العيادة أكثر ازدحاما بسبب المرافقين للمرضى ، انتظار آخر ، ومجلات لا تمتد اليها يدى ! ولوحات من ريف مصر وريف أوروبا على الجدران لا تتوقف أمامهـا العيون ، فعيون المرضى هنا تبدو كأنها تنظر الى المجهول وتحاول أن تراه فى داخل نفوسهم أو خارجها !

عينا الطبيب النفسى تمسكان بى منذ لحظـة دخولى حجرته بينما أشعر بالعجز عن الامساك بهما ، لم ألاحظ متى ولا كيف أشار على زوجتى بالخروج هكذا من البداية ، ويبدو أنه فعل ذلك بقدر هائل من الكياسة ، فقد نبهتنى وهى خارجة الى انها ستنتظر بالخارج بناء على رغبة الطبيب دون أن يلوح عليها أى ضيق أو تبرم !

كان يعرف اسمى من كشف أمامه : أسماء المرضى ، شعرت بالراحة والقلق معا حين أخبرنى منذ البداية ، وبطريقة عفوية وودية أنه يتـابع أحيانـا بعض ما أكتب ،وربما لهـذا السبب لم يبـدأ بالاستجواب التقليدى بل قال متلطفا ، انه كان يود لو أتيحت له فرصة لقائى لمناقشتى فى بعض ما أكتب ! (شعرت أن ذلك مجرد مجاملة) ثم تابع ضاحكا : « انه لا مانع عنده لو دفع لى هو أجرة الكشف » (لاحظت آنذاك أن سواد شعره لا يماثله الا سواد عينيه، أنهما لا يعكسان عمره الحقيقى الذى يلوح فيما حول عينيـه من تجاعيد) .

أحببت أن أخلصه من عناء المجاملة والبحث عن مدخل فقلت له بعد أن شكرته مباشرة :

– أشعر يا دكتـور بتعب شديد دائم وملح لا أستطيع أن أحدد معالمه أو أسبابه ! أشعر به فى أوقات الراحة مثلما أشعر به فى أوقات العمل !

ابتسم الطبيب ابتسامة من فهم مناورتى وعدم تصديقى لجاملته • قال بلهجة لا تخلو من سخرية :

ـ ما دمت متعبا الى هذا الحد فلم العجلة ؟

قلت محبطا :

ـ أريد أن استريح !

قال مسايرا :

ـ هل رآك طبيب باطنى ؟

ـ نعم ... الدكتور رفعت ، وهو الذى ... قال مقاطعا

دون أن يفقد روح الود :

ـ كيف بدأت الحالة ؟

ـ تلك هى المشكلة ... لو كنت أذكر حادثا أو موقفا محددا بدأت بعده هذه الحالة لقلت : ربما من هنا السبب لكنى ...

ـ يمكنك على الأقل أن تذكر كيف كنت تشعر قبل هذه الحالة حين تواجه بعض المتاعب ؟

ـ بشكل عام كنت أشعر ان المتاعب هى الاستثناء فى حياتى وليست القاعدة ... كنت أعرف أسباب المتاعب وأحددها وأحاول التغلب عليها ، لكنها كانت تتزايد يوما بعد يوم ، أو هكذا كان شعورى بها ، تتزايد وتتشابك وتتداخل ، وتوشك أن تصبح هى القاعدة ، تصبح موجودة فى كل شىء لدرجة انك لا تستطيع أن تمسك بها وتبعدها أو تزيحها مؤقتا الى مكان آخر ، موجودة فى كل شىء لدرجة أنك لا تستطيع أن تلم بها أو تعرفها !

نعم ... فجأة تهرب منك هذه الأسباب ... تصبح مجهولة بقدر ما هى معلومة وواضحة ... ليس هذا الكلام من أعراض تعبى ، بل هو احساس حقيقى ، فعلا أصبحت لا أعرف من أين أبدأ ؟ وكيف أمسك بأى طرف لخيط المتاعب الذى يلتف حول كل شىء ؟

قال الطبيب :

ـ تعتقد انك لو عرفت هذه الأسباب أو على الأقل بدايتها فسوف تعرف طريق الراحة ؟

ـ أظن أن تلك تكون هى البداية الصحيحة !

ارتسمت على شفتيه ابتسامة فيها ظل اشفاق قال :

ـ اما ان وراءك عمل هام جدا ، أو انك تعتقد ان ورائى مثل هذا العمل ؟!

ثم استطرد مقاطعا دهشتى :

ـ وحتى تطمئن الى أنه ليس ورائى مثل هذا العمل دعنى أروى لك قصة حدثت لى منذ شهور (لحظتها ورغم أنه استرخى فى جلسته تماما ليوحى لى بضرورة الاسترخاء تحول الاشفاق في عينيه الى تعب ... تعب كهذا الذى كنت أراه أحيانا فى عينى حين أقف أمام المرآة لحظة مغادرتى الفراش) . فاجأنى مرة أخرى بقوله :

ـ أنت لم تصدقنى حين قلت لك اننى كنت أود لقاءك وبدورى أرجوك ألا تصدق انك سوف تعرف طريق الراحة بمجرد أن تعرف أسباب التعب ، المهم الآن أن نتكلم معا بكل ما نقدر عليه من صدق ، وألا تحاول القفز الى النتائج أو الى الراحة ، لقد احتجت الى وقت طويل جدا لكى تصل الى ذروة التعب ، وأنت الآن فى القمة ، أية محاولة للقفز الى السفح قد تعنى الهلاك .. !

ـ ماذا تحب أن تشرب ؟

ـ قهوة !

ـ لو لم أكن أعـرفك جيدا لما فكرت فى أن أروى لك هذه القصة ، ولست أوريها لمجرد أن تثق بأننى أعرفك بل لأننى متعب مثلك تماما ، وحاجتى الى رأيك لا تقل عن حاجتك الى رأيى !

لم أقو على مغالبة الضحك ، قلت : يبدو ان هذه أحدث صيحة فى العلاج النفسى !

ـ استطرد متجاهلا سؤالى وضحكى معا :

ـ منذ شهور كنت فى رحلة ·· يمكن أن تعتبرهـا رحلة عمل ·· كلفت بزيارة مجموعة كبيرة من العاملين فى أحد الأماكن النائية ـ بحكم المهنة لا تنتظر أن أروى لك أسماءهم أو طبيعة عملهم أو مكانه ـ وفى الحقيقة كل ذلك لا يهم فى جوهر الموضوع ، ولكن اذا أردت أن تتصور الجو وتعيش فيه فيمكنك أن تتخيل مجموعة من الشباب يعملون فى الصحراء للبحث عن البترول مثلا أو ما أشبه ، عمل كما ترى وطنى وهام ولكن ظروفه قاسية ، صحراء ··· نشتد حرارتها صيفا وبرودتها شتاء ، معلبات فى أغلب الوقت ، لا ظل شجرة ولا طيف امرأة ، لا أسرة ، ولا زيارات ، لا سينما ، لا شوارع أو مارة ، أو باعة ، أو دكاكين ، فى كلمة : لا شىء مما ألفوه طوال حياتهم !

ـ اشرب قهوتك ·

« فى ظل هذه الظروف تنشأ بالطبع مشكلات كثيرة ، لكن المسئولين عن العمل لم يتخيلوا أن تصل الأمور الى حـد الشجار والعنف والقتل ، وكانت مهمتى أن أحاول فهم هذه المجموعة من

العاملين ... فهم المشاكل التى أدت الى تفاقم الموقف الى هذا الحد ، وحتى لا تتكرر المأساة ! ولكى أفهم مشاكلهم كان لابد أن أكسب ثقتهم لأسمع منهم كلاما آخر غير ما يقولونه للمحقق !

وبدأت مشكلتى حينما وجدتهم جميعا يلوذون بصمت قاتل حتى بعد أن طلبت الانفراد بهم ، وبالتحديد بهذه المجموعة التى أثارت الشغب والعنف !

فجأة قال لى أصغرهم سنا وهو شاب تخرج حديثا من الجامعة من هذا النوع من الشباب الذى يطيل شعره ويقضم أظافره فى لحظة الغيظ :

ـ لماذا جاءوا بك الينا ؟ ماذا تريد منا ؟ كن شجاعا أنت وتكلم !

ـ أنت تعلمون أنكم هنا فى مهمة . قوطعت :

ـ نحن نعلم أنك واحد من الرقعاء الذين يأتون بين حين وآخر للتفرج علينا ، والقاء بعض الكلمات السخيفة ثم يهرولون الى بيوتهم وظروف حياتهم المريحة ! ولم أعد أعرف من الذى يتكلم :

ـ ابق معنا هنا ... عش أياما أو شهورا أو أعواما مثلنا ، وستعرف كل ما تريد معرفته !

ـ قد تتشاجر مثلنا ... فيبعثون لك برقيع آخر تنشب أظافرك فى عنقه !

احترمت منطقهم ، طلبت بقائى معهم وقتا غير محدد . لم تكن اجابة طلبى أمرا ميسورا لكننى أصررت ...

ـ أرجوك لماذا تنظر حينا الى الباب وأخرى الى ساعتك قالها الطبيب بغيظ :

ـ المنتظرون فى الخارج ! قلتها بلهجة اعتذارية ٠

ـ ربما كانوا أحسن حالا منك ومنى ٠٠ ثم استطرد : « بعد شهر واحد عرفت لماذا يتشاجرون الى حد الموت ولماذا يثيرون الشغب ؟ ودون حاجة الى أن أسمع منهم كلاما كثيرا ٠٠٠ لم يكن ثمة ألغاز، وحين أخبرت المسئولين عنهم بما ينبغى أن يحدث لكى يعودوا الى حالتهم الطبيعية ، وحتى لا يتكرر الشغب من غيرهم ٠ قالوا :

ـ ان هذا شبه مستحيل ، فالأمر يتعلق بظروف أكبر منا ومنهم ومن علمك !

ـ اذن قولوا لهم حقيقة هذه الظروف !

ـ وتقول لنا انك طبيب ! كيف جاءوا بمثلك الينا ؟

ـ نعم ٠٠٠ أقول هذا لأنى طبيب !

ـ أنت مريض أكثر منهم !

ولم أجد ما أقوله لهم ٠٠٠ لمجموعة الشباب التى أثارت الشغب ولغيرهم ممن بدأوا يثقون بى ، لأول مرة وجدتنى مضطرا الى أكاذيب من هذا النوع ٠٠٠ اننا نكذب كل يوم كما نتنفس ، لكن هناك أكاذيب تقصم ظهرك وأنت تنطق بها ، قلت لهم ، لمن وثقوا بى :

ـ سوف تسير الأمور على نحو أفضل تقريبا ، لا تقلقوا ورحت أودعهم واحدا واحدا !

بعض من وثقوا بى جمعوا لى باقة ورد ، لا أدرى كيف جمعوا زهورها فى مثل هذا المكان ! قال من يقدمها لى :

ـ سوف نذكرك بنا ... لا تتركها تذبل فى مكتبك ! الشاب الصغير الذى يطيل شعره ، ويقضم أظافـره والذى كان قد أصبح صديقى هو الذى رفع يده وأهوى بهـا على وجهى ، وأنا أمد يدى لوداعه بين ذهول الجميع ! أنقذته من أيديهم ، كمـا أنقذنى من سخطى على نفسى ! كانت دهشتهم لا حد لها حين أصررت على عدم اثارة الموضوع أمام أحد من المسئولين عنهم !

من يومها وأنا متعب ، كنت فى حاجة الى مريض من نوعك لأتكلم معه . تعتقد أنك متعب لانك بدأت تجهل أسباب تعبك ، ولكن هذا أخف أنواع التعب ، فلديك على الأقل أمل فى أن تعرفها وأن تكون تلك بداية الراحة لكن حين تعرف هذه الأسباب ، وتعرف أنك لا تملك لها تغييرا فهذا هو التعب الحقيقى . يا صديقى أرأيت الآن اننا معا فى حاجة الى أن نلتقى وأن نتحادث ، وألا نستعجل القفز الى النتائج أو الراحة ! هل أطمع الآن فى تحديد موعد نلتقى فيه لأسمع منك القصة الحقيقية لمتاعبك بطريقة أفضل مما فعلت فى هذه الزيارة ؟!

ـ أين تحب أن يكون موعد اللقاء ومكانه ؟

ـ أمام المدخـل الجنوبى الشرقى لاستاد القاهرة الساعـة الرابعة يوم الخميس القادم حيث تقام المباراة الفاصلة فى الساعة الخامسة بين النادى الأبيض والأحمر !

ـ هل أنت من عشاق الكرة ؟

ـ أصبحت من عشاقها ، فاذا راق لك الموعـد ؟ قلت متفحصا عيون الطبيب المتعبة .

ـ متى حدث ذلك العشق ؟

ـ بعد شهور من شعورى بالتعب ... أصبحت أجد راحتى الكبرى هناك ...

« لا شىء يجعلك فى قلب الحياة وخارجها فى الوقت نفسه مثل كرة القدم لأنها أعظم الوسائل لفقدان الوعى بتركيزه فى شىء واحد لا حدود لاثارته وجماله وروعته !؟ .

من الذى قال هذه الكلمات ؟ وارتسمت على شفتى الطبيب بسمة غامضة . قال : أذكر انى قرأتها فى قصة بعنوان « ..... » هل تذكر هذه القصة ؟ قلت وأنا أستجمع قواى ، وأشد على يده :

ـ سوف نلتقى فى الموعد نفسه ، وفى غيره ، لكن أرجوك أن تكتب أية روشتة لأقدمها لزوجتى التى تنتظر فى الخارج !! .

هذه المرأة

حين خـرج الأستاذ « حافظ عبد السلام » من المؤسسة التى يعمل فيها الى الشارع ، تلفت خلفه بطريقة لا شعورية ، وتعمد أن يمشى قليـلا قبـل أن يشير الى أول « تاكسى » خال يمر به ويقول للسائق فى عبارة مقتضبة ـ بنك الاسكندرية ـ شارع قصر النيل ٠

أخيرا أصبح وحده لبعض الوقت ، فى كل مرة ينفرد فيهـا بنفسه يدق فى رأسه جرس التليفون ، ويبدأ هذا الحوار الذى بدأ فى الوقع منذ أسابيع فى بيته ٠

ـ ألو ٠

ـ منزل الأستاذ « حافظ عبد السلام » ؟

ـ نعم ٠

ـ الأستاذ حافظ عبد السلام الذى كان مدرسا فى العباسية الثانوية للبنات سنة ١٩٦١ ٠

ـ هو والله العظيم ٠

قالها بلهجة بين الشك والرجاء واصطناع المرح ٠

ـ تذكر ليلى عبد العزيز ؟

ـ دهمته المفاجأة ، قال بلا تحفظ :

ـ لم أنسها أبدا ٠

ـ هى التى تتحدث اليك الآن ٠

ـ قالتها بلهجة جذلى ، لهجة شخص فوجىء بنصر مبكر ٠ قال ولا يزال تحت تأثير المفاجأة محاولا أن يتذكر الصوت ٠

ـ هذه فرصة سعيدة جدا ما كنت أتوقعها بعد كل هذه السنين ٠

مضت لحظات صامتة ، نمت عن اضطرابها هى الأخرى ٠

ـ تريد أن تعرف لماذا أتصل بك ؟ وكيف عرفت ٠٠٠ ؟

ـ قاطعها وهو لا يزال عاجزا عن اختيار كلماته :

مهما تكن الأسباب فأنا سعيد بسماع صوتك و ٠٠٠٠٠٠ قاطعته بلهجة من استردت نفسها ٠

ـ كنت أخشى أن تكون قد نسيتنى تماما ٠

ثم عاد الصمت ٠٠٠ كأنما أدركا معا فى الوقت نفسه أنهما تورطا فى أكثر مما كانا يريدان ـ على الأقل فى هذه اللحظة ـ قال كمن تنبه فجأة الى شىء :

ـ شىء واحد هو الذى أريد أن أعرفه الآن ، وبسرعة هل يمكننى أن أراك ٠ ؟ ومتى وأين ؟

قالها بلهجة تشى بشعوره بأن الوقت والظروف لا يسمحان بتأجيل هذا السؤال ٠

قالت بلهجة الفاهم :

ـ آسفة لاننى اتصلت بك فى البيت ، لم تكن أمامى فرصة أخرى ثم استطردت لانقاذ الموقف ٠

ـ ما رأيك فى اليوم الرابع من الشهر القادم فى بنك الاسكندرية بشارع قصر النيل الساعة العاشرة صباحا ؟ لم يستطع أن يمنع نفسه من أن ينفجر فى ضحكة عالية وهو يسأل :

ـ لماذا بنك الاسكندرية واليوم الرابع من الشهر ؟

قالت وهى تضحك ضحكة الظافر :

ـ البنك هو أفضل مكان تقابل فيه سيدة ، الانتظار هناك مشروع للجميع ، واللقاء بالصدفة أمر طبيعى ، والناس مشغولون بسحب نقودهم أو ايداعها أو عدها ، وفى اليوم الرابع يكون البنك هادئا نوعا ما ٠

ـ لازلت البنت الشقية التى عرفتها منذ خمسة عشر عاما ٠

ـ أرجو أن أجدك كما كنت يا أستاذ حافظ ٠

ـ ستجدين أشياء كثيرة قد تغيرت عدا رغبتى فى لقائك ٠

ـ الى اللقاء اذن فى هذا الموعد ٠

ـ لم نتكلم بعد ، كنت أخشى أن ٠٠٠٠

ـ أعرف وأقدر ٠٠٠ يكفى الآن أننا اتفقنا على موعد ٠ ثم أضافت وكأنها تريد تغطية انسحابها المفاجىء :

ـ مادا نقول اذن حين نلتقى ؟

ـ مع السلامة ٠

القى نظرة على ساعة يده ، كانت تقترب من العاشرة كان يجب أن يكون هناك فى وقت مبكر ليراها وهى تدخل البنك ، ليتعرف عليها وقبل أن تتعرف عليه ، ترى كيف تبدو بعد كل هذه السنين ؟

رآها فى خياله كما كانت منذ خمسة عشر عاما ، فى ثيابها المدرسية الرمادية أطول التلميذات قامة ، وأكثرهن جرأة وجمالا تخيلها تدخل البنك بثيابها المدرسية ، بحقيبة كتبها التى كانت تحملها على ظهرها كالأطفال ، مع أنها لم تعد طفلة ٠٠٠ كان يقول لها فى تلك الأيام الماضية :

ـ يا مجنونة متى تعقلين ؟

فترد ضاحكة ضحكة يختلج لها كل قوامها وشعرها ورأسها ويديها وهى تقول :

ـ تقول عنى مجنونة وأنا أشطر تلميذة عندك ٠

كانت أشطر وأجمل وأجرأ تلميذة ، وكان يفعل المستحيل ليقاوم حبه لها ، كان فى بداية حياته العملية ، يدرك مسئوليته كمدرس فى مدرسة ثانوية للبنات ، يعرف ان العيون كلها مفتوحة عليه باعتباره المدرس الأعزب الوحيد فى المدرسة ، ولولا الحاجة الماسة الى تخصصه ما وافقوا على نقله الى هذه المدرسة ٠

ولكنها هى كانت بحساسيتها المفرطة ، بسنوات عمرها الثمانى عشرة ، كانت تدرك أنه يكتم حبه لها ، وحين تسنح لها أية فرصة لم تكن تبذل أقل جهد لاخفاء حبها له ولكنه لم يسمح لهذا الحب المتبادل المكتوم أن يتجاوز دائرة التعبير غير المباشر عن نفسه ٠

لم تكن ظروفه تسمح له بالزواج ، أو حتى للارتباط مع فتاة لا تزال أمامها سنوات من التعليم فى الجامعة ٠

فى ذلك الوقت كان يجب على الأقل أن يضع حدا لتعلقها به ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك بطريقة حاسمة باترة تركها تشعر بحبه المكتوم لها ، وترك نفسه تسعد بكل الحيل التى تلجأ فتاة فى هذه السن للتعبير غير المباشر عن حبها له ٠

يدرك الآن بوضوح ، كم كان ينطوى موقفه هذا على قدر كبير من الأنانية والنذالة ٠ كيف لم يدرك ذلك فى الماضى ؟

كانت السيارة قد بدأت تسير ببطء فى زحام شارع « سليمان باشا » ٠ وقبل أن تدخل شارع قصر النيل ، ساعة يده تشير الآن الى العاشرة تماما ، كالعادة يصل دائما متأخرا ، وبعد فوات الوقت ٠

فى مرات عديدة ، وهو يسير فى شوارع القاهرة تمنى أن يلتقى بها مصادفة ، حتى بعد أن تزوج وأصبح أبا لطفلين ظلت هذه الأمنية تنقر فى قلبه ، لم يكن سعيدا فى زواجه ، ولكنه كان كان دائما يقنع نفسه بأن هذا هو الزواج ، وربما يرجع قدر كبير من شعور الناس بالتعاسة فى الزواج و فى غيره الى ذلك الغموض المقيت الذى تنطوى عليه كلمة السعادة ٠ أكان يخدع نفسه طول الوقت بهذه الكلمات ؟

وماذا يكون ما يشعر به فى هذه اللحظات ان لم يكن هو السعادة الحية الدافقة ؟ ومن الغريب أن تتشابه أعراض الخوف والسعادة ، لحظة المواجهة تقترب ٠

أيخاف هذه اللحظة التى طالما تمناها ؟ هى التى بدأت ، هى التى كانت تبدأ دائما ، هى الآن فى أوج ازدهارها ، وهو فى أوج انكساره ، ترى ما الذى تريده تماما ؟

عماذا تبحث ؟ الحب ؟ الزواج ؟ المغامرة ؟ ماذا تعرف عنه ؟ وماذا لا تعرف ؟

توقفت السيارة أمام بنك الاسكندرية ، دخل مع الداخلين راح يمسح المكان بعينين زائغتين ، من خلف منظار راكن ، انداح فى قلبه شعور بالراحة والقلق حين لم يجد فى صالة البنك سيدة واحدة ، انتحى مكانا قصيا وراح يراقب الباب من خلف صحيفة يتظاهر بقراءتها ..

أيدرك الناس فى البنك أنه الوحيد الذى جاء وجلس دون أن يسلم أوراقا فى شباك الايداع أو السحب ؟

قام وتمشى فى صالة البنك لينقذ نفسه من سخافة تفكيره وسلوكه ، هاهى قادمة .. هى ليلى عبد العزيز ، رأسها المرتفع كرأس الحصان شعرها الطويل وقوامها وثقتها ، المكياج الذى تضعه سيدة فوق الثلاثين يعجز عن اخفاء ملامحها الفتية النضرة ، الأنف الحاد ، والعينان الثرثارتان ، تلوح فيهما هذه المرة نظرة غريبة لا تقبل الترجمة الفورية ، نظرة ثابتة تقودها الى شباك الصرف ، يقينا لم تبصره ، فجأة يستدير رأس الحصان ، وتقبل عليه فى حفاوة هامسة :

ـ أهلا

قالتها وهى تسلم ثم أضافت :

ـ لن أتأخر كثيرا ، ومضت من جديد ناحية الشباك ، اكتشف بعد أن مضت أنه لم ينطق بحرف واحد ، ربما نطق وجهه بالكثير ، لم يستطع فى فترة الانتظار أن يعد أسلحته للمواجهة القادمة ، أسلم نفسه لقلق سعيد أخرس ، تمنى ألا يدخل البنك شخص يعرفه ، لا حظ أنها لا ترتدى جوربا ، وأن لون « جيبتها » الأزرق

الغامق ، ينسجم مع لون « بلوزتها » الفيروزية ، أخيرا جاءت لتجلس بجواره فى هدوء ، وضعت حقيبة يدها بينهما ، قال وقد تذكر أنه لم ينطق حتى الآن بحرف :

ـ هناك أشياء يبدو أنها ستظل تحدث للكبار والصغار معا ، وفى كل وقت ...

قالت :

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل هذه الحيرة التى أشعر بها الآن ، لا أدرى كيف أبدأ الحديث ولا من أين ؟

ـ ولا يهمك أبدأه أنا ، ثم تابعت ضاحكة بصوت هامس مـرح ...

ـ اسمى ليلى عبد العزيز ، العمر ٣٣ سنة ، الحالة الاجتماعية متزوجة منذ سنوات ولم أنجب أطفالا ، المهنة محاسبة فى الشركة الأهلية للتأمين على الحياة ، الغرض من المقابلة لى خدمة فى مؤسسة الأدوية التى تعمل خبيرا فيها ، وتذكرت أنك كنت يوما تحب أن تقدم لى أية خدمة فلجأت اليك ...

أحس أنه يدخل معركة حديثة بأسلحته التقليدية البائسة ، وبلا خطة ، وأن مصيره فى كفة القدر ، ومع أنه لم يصدق حكاية الخدمة التى لها فى مؤسسة الأدوية الا أنه قال لها بطريقة عفوية لمجـرد مسايرتها فى الحـديث والى أن يسترد نفسه أمام الهجوم المفاجىء :

ـ وما هى هذه الخدمة يا سيدتى ؟

ضحكت ضحكة ناعمة وهى تقول :

ـ غلبتنى بهذا السؤال ، أردت انقاذك من الحيرة فوضعتنى فى مأزق ·

أذهلته بساطتها وجرأتها ، وقبل أن يقول كلمة واحدة تابعت بالصوت الهامس نفسه :

ـ أتعرف ؟ لم تتغير كثيرا ، فى الماضى كان يعجبنى خجلك ·· أما الآن فلا أدرى ····

قال وقد استرد نفسه :

ـ لا تنخدعى بالمظاهر ، لدى من الشجاعة ما يجعلنى أقول لك اننى مفتون بكل شىء حتى بطول لسانك ···

قالت وهى تكتم ضحكة ناعمة :

ـ حدثنى عن أخبارك ·

ـ يبدو أنك تعرفينها أكثر منى ·

ـ لا تترك الغرور يدير رأسك ، لقد عرفتها بالصدفة وستعرف بعد قليل كيف حدث ذلك ···

قال محاولا أن يكون فى مثل بساطتها :

ـ متزوج ، ولى طفلان ···

ـ هذه كارثة ···

ـ من النوع الذى يخفف أنه يحدث لكل الناس ··

فى تلك اللحظة نادى الصراف اسمها ، شعر بأنه قدم له طوق النجاة فى الوقت المناسب ، كان الحديث يتجه نحو طريق محفوف بالمكاره · عادت بعد أن تسلمت نقودها ، كان بعض الناس قد جلس بجواره ، قالت وهى لا تزال واقفة :

ـــ ما رأيك فى الخروج من هنا ؟

ـ لا مانع ..

ثم أضاف وهما يتجهان ناحية الباب :

ـ الى أى مكان تحبين أن نذهب ؟

ـ نتمشى فى الشارع ...

قال بلا تفكير ...

ـ لماذا الشارع ؟

ـ الشارع أفضل مكان بعد البنك ...

لم يشأ أن يبدو أقل منها شجاعة ، مع أنه يفقد نفسه فى الشارع الا حين يكون وحيدا ، مع الناس لا يعرف كيف يسمع أو يتكلم ..

قالت وهما يسيران متجاورين :

ـ منظرك يضحكنى ، لماذا تتلفت كأن الناس جميعا يعرفونك ؟

قال وقد شعر بأن التظاهر لا يجدى :

ـ يمكننا أن نقابل زوجك الآن ...

ـ سأعرفك به ، وأقول له انك كنت أستاذى فى العباسية الثانوية ، قابلتك فجأة فى الشارع .

ـ لازلت البنت المجنونة ...

ـ يبدو أنك لم تتغير كثيرا ، ثم أضافت بالبساطة نفسها :

ـ هل عندك مانع من أن تعرفنى بزوجتك ؟

ـ لا أظن أنه يسعد أية زوجة أن يقدم لها زوجها سيدة فى مثل جمالك ؟

لم يبد أنها سعدت كثيرا بهذه الاطراء ، فوجىء بها تسأله :

ـ هل تحب زوجتك ؟

ـ مستعد أن أقول كل شىء عن زوجتى وعن نفسى ، لكن ليس بهذه الطريقة ، وليس فى الطريق ...

ـ تفكر بالحدائق والكازينوهات ...

ثم استطردت قائلة وقبل أن يرد :

ـ هل تعتقد أن الحب الحقيقى خرافة ؟

كاد يقول لها :

ـ نعم .

ولكنه قال :

ـ الخرافة الحقيقية أن نعيش بلا حب .

قالت فى بساطة أليمة :

ـ لم أعد أحب زوجى ....

ـ تزوجتما عن حب ؟

ـ نعم .

ـ ما الذى جرى ؟

ـ أكذب عليك لو قلت اننى مقتنعة بسبب واحد من الأسباب التى أذكرها لنفسى ، فمعها قد يبقى الحب وبدونها قد يذهب ..

كاد أن يحدثها عن المفهوم الغامض للسعادة وللحب وأن ذاك ربما كان السر فيما يشعر به الناس من تعاسة ، ولكن جو الشارع يفقده القدرة على مثل هذا الحديث ، وربما خوفه من أن يقوده ذلك الى نهاية لا يحبها ...

وجد نفسه يقول :

ـ لم تحدثيني عن موقف زوجك ..

ـ حين طلبت منه الانفصال رفض بشدة ، يصفني كما تفعل بالجنون .

ـ معنى ذلك أنه يحبك ، ويحب جنونك ..

ـ حتى ذلك لم أعد أجد له معنى ...

كاد أن يحدثها مرة أخرى عن المعاني الغامضة التي تضللنا في البحث عنها ولكنه قال لها :

ـ هل تظنين أن لمسألة عدم الانجاب دخلا في الموضوع ؟

ـ لا أظن ...

ثم التفتت اليه قائلة بنبرة غريبة :

ـ أنت عندك أطفال ... هل لا تزال تحب زوجتك ؟

وقع سؤالها عليه من جديد كالطرقة ، تجره الى مواجهة حاسمة ، ومع ان لديه اجابات جاهزة لمثل هذا السؤال لنفسه أو للناس الا أنه شعر بأنه سوف يفقد احترامها لو نطق بواحدة منها .

وما لم يتحدث بلغتها فسوف ينقطع الحوار الذي لم يكد يبدأ . قال لها في محاولة يائسة لانقاذ الموقف :

ـ دعينى أسألك بصراحة ، ما الذى تقصدينه بكلمة الحب ؟
قالت بنبرة تقطر سخرية .....

ـ الحب الذى يدونه تصبح الحياة خرافة ؟ هل نسيت ؟

خيم عليهما صمت ثقيل مرهق ، كأن الشارع سكت فجأة ، كاد أن يقول لها :

ـ أنت مجنونة فعلا ...

لكنه كالعادة اختار حلا وسطا سخيفا قال :

ـ لازلت قادرة على اثارة الخوف فى نفس اى رجل ...

لم أرد أبدا سوى الحب ، ولكنى لم أجد دائما سوى الخوف أو الرغبة فى الخداع ...

قالتها بلهجة تقطر صدقا ويأسا .

ولأول لحظة تصيب كلماتها قلبه ، وكأنما ينكشف عنه حجاب ثقيل ، هذه انسانة قد تكون بسيطة جدا ، وصادقة جدا ، ولهذا السبب يخافها كل الناس .

قال بخوف هذه المرة من أن يكون قد أضاع آخر فرصة :

ـ مستحيل أن نتكلم بهذه الطريقة فى الشارع ، هناك الكثير الذى يجب أن نقوله بطريقة أفضل فى مكان معقول .

ـ مثل الفنادق ، والشقق المفروشة .

ثم أضافت حين غرق فى المفاجأة ، كأنما لتنقذه .

ـ لا تخف ، لم أكن أريد أن أهيم بك فى الشوارع ، ثم أشارت الى عمارة قريبة قائلة :

ـ سوف أحجز موعدا عند طبيب بهذه العمارة ، هل عندك مانع ؟

ـ أى طبيب ؟ قالها ليعيد جو الحديث الطبيعى ·

ـ الدكتور شكرى أخصائى أمراض النساء ·

أمام مصعد العمارة كان ينتظر بعض السكان · أشارت الى السلم قائلة :

ـ أنه فى الطابق الثانى ، لا أظنك أصبحت عجوزا على صعود السلم ·

حاول أن يطمئن نفسه بعودتها الى الحديث الطبيعى المرح صعدا السلم متجاورين ، عند التفاتة الدرج أمسك بيدها فى يده ، فوجىء بأصابعها باردة ، بعد نظرة خاطفة الى أعلى السلم وأسفله جذبها ناحيته وقبلها فى خدها ، رأى وجهها فقط وهو يقبلها ، وربما لو نظر اليها قبل ذلك لما فعل فعلتـه ·

لم يشعر انها سعيدة ولا انها حتى فوجئت ·

أدرك أنه يتخبط ، وأن الخيط الدقيق الذى ظل يربطهما كل هذه السنين يتمزق فى أول لقاء ·

ـ لم أتصور أن هذا يغضبك ·

قالها بعد أن خرجا من عيادة الطبيب :

ـ لم أغضب لما فعلت ··· لن تفهمنى ··· ثم أضافت :

ـ سوف آخذ تاكسى من هنا ، كانت فرصة طيبة يا أستاذ حافـظ ·

ـ غير معقول كل ما حدث ، لا أتصور أن نفترق هكذا ؟

قالت :

ـ كلمات قليلة أود أن أقولها قبل أن أتركك ·

أنصت فى يأس :

ـ لك صديق فى مؤسسة الأدوية اسمه « حمدى » ·

ـ تعنين حمدى خليل ؟

ـ نعـم ·

ثم أضافت :

ـ انه زوجى ·

دار به الطريق ، بدأ يفهم كل شىء ، ولكنها هى كانت تتكلم وكأنها تشك فى ذلك ·

ـ أعتقد أنه وجه اليك الدعوة لزيارتنا ، اعتذر بأية طريقة ·

ثم تابعـت :

كان دائما يتحدث عنك ، ومن خلال ما سمعته خيـل لى ، انك تعيش فى مثل ظروفى ، وان حاجتى لك قد تكون فى مثل حاجتك لى ، كنت تحدثه عن كل شىء ، والغريب أنه لم يكن يخفى عنى شيئا · طبعا لم أقل له اننى كنت أعرفك ، ولم أرد أن تتم علاقتنا من خلف ظهره ، لو تأكدت ظنونى لطلبت منه الانفصال وتزوجتك · ربما كنت مجنونة فعلا ، ولكن هذه هى الحقيقة ·

لم يدر ماذا يمكن أن يقول ؟ خيم عليه صمت ثقيل أشد ثقلا من أى صمت عرفه فى كل حياته ·

كانت هذه السيدة ، حقيقة هذه السيدة التى تفجرت أمامه فجأة ، وفى زمن قصير جدا ، أكبر من أن يحتملها ، من أن يقوى على مواجهتها ، حين أراد أن يتكلم ، حين تحييه بهزة رأسها وهى تركب التاكسى الذى أشارت اليه . واختفى التاكسى عن عينيه فى شوارع القاهرة ، وحين سار على مهل يتأمل فى كل ما حدث منذ لحظات ، شعر بمزيج من الراحة والخوف . وأنه في حاجة الى مكان هادىء يلملم فيه نفسه التى سقطت فجأة من علو شاهق .

لم يتصور يوما أن تكون الخمسة عشر عاما بهذا الارتفاع !